

الفصل الأول في تدرّ الحالات النفسانية

في المتدرّد والمتحدّد نقرّ عادة بان حالاتنا الوجدانية : كالأحاساس ،
والعواطف ، والاشواق ، والجهود ، تقبل الزيادة والنقصان ، ويؤكد بعضهم
ايضاً امكانية القول عن احساس ما انه يفوق شدة احساساً آخر من جنسه
مثنى ، وثلاث ، ورباع . وسنأتي فيما بعد على درس هذه النظرية الاخيرة التي
يتدرّع بها علماء النفس الطبيعيون ، ولكن خصوم علم النفس الطبيعي* انفسهم
لا يرون غضاضة في التكلم عن احساس ما أنه يربو على غيره شدة ، او عن
جهد من الجهود انه اشد من سواه ، وهكذا يقيمون فروقات (كمّ) بين
حالات باطنية محضة . اما الحس المشترك* فلا يتكذب البتة عن اعطاء حكمه
في هذه القضية دون تلجج ، فيقال اتنا اشد حراً او اقله ، اكثر غمّاً او اخفه ،
وهو فارق بين الاكثر والاقل لا يستنكره احد منا وان تمادينا به الى منطقة
الافعال النفسانية ، والاشياء اللامتدة . ولكن الامر لا يخلو مع ذلك من نقطة
يلابسها الابهام ، ومشكلة اشد وعورة بما نتخايله عادة .

عندما نزعم بان عدداً من الاعداد ينيف على سواه ، او ان جسماً من
الاجسام يفوق غيره حجماً ، نكون على ثقة بالواقع بما نتكلم لانا نجابه في
الحالتين معاً فضاءات متفاوتة كما سنوضحه بتفصيل فيما بعد ، فدعو فضاء اوسع
ذلك الذي يضم الآخر . ولكن كيف يشمل احساس ما احساساً آخر
دونه شدة ؟ هل نقول بان الاول يستازم الثاني ، وانا ندرك الاحساس
الاشد شرط ان نجتاز عبر الشدائد الادنى من الاحساس عينه ، وانا نجابه هنا
ايضاً الى حد ما نسبة الشامل للمشمول ؟ ان هذه النظرية في المقدار المتشدد

هي نظرية الحس المشترك، ولكن لا نستطيع شيدها تعليلاً فلسفياً دون ان نزلت في عثره برهان الدور*، لانه من الثابت كون العدد يربو على غيره عند ما يعقبه بطريقة طبيعيه في سلسلة الاعداد، واذا كنا قد تمكنا من رصف هذه الاعداد باتساق متزايد، فلانه يوجد فيما بينها نسب شامل لمشمول، ولاننا نشعر بالكفاءة لتعليل كيفية تفوق عدد من الاعداد عدداً آخر. فالمشكلة اذن هي ان نعرف كيف نتمكن من تكوين سلسلة كهذه بشدائد ليست اشياء ترصف، وبأي دليل نستتير لنعرف ان حلقات هذه السلسلة تتزايد صعداً مثلاً بدل ان تتناقص، الامر الذي يرجع بنا الى التساؤل : لماذا تنقلب الشدة مقداراً من المقادير؟

يكون تهرباً من الصعوبة ليس غير تمييزنا بين نوعين من الكمّ حسب عاداتنا : كمّ متمدّد يقاس، وكمّ شديد لا يقاس ولكن يحق لنا القول عنه مع ذلك انه يفوق شدة كمّ آخر او ينقص عنه؟ لاننا نقرّ هكذا بوجود رابطة مشتركة بين هذين الشكلين من المقدار ما دمنا نسيبها مقدارين، ونعلنها قابلي الزيادة والنقصان على السواء. ولكن ماذا يمكن ان يكون ثمة من عام كمّ مقدار، بين قابل التشدد وقابل التمدد، او بين المتمدّد وغير المتمدّد؟ اذا كنا ندعو في الحالة الاولى كمّاً اكبر ذلك الذي يشمل الاخر، لماذا نتكلم بعد عن كمّ ومقدار حيث لم يعد من كينونة للشامل والمشمول؟ فاذا تمكّن كمّ ما ان يزيد وينقص، وكنا ندرك في الاكثر الاقل، الا يكون هذا الكمّ بذلك عينه متمدّداً قابلاً للتجزئة؟ اليس من التناقض بعد ذلك ان نتحدث عن كمّ غير قابل للامتداد؟ وعلى الرغم من هذا فان الحس المشترك ينفق والفلاسفة على جعل التشدد المحض مقداراً كما هو الحال في التمدد الصرف. ونحن لا نستعمل الكلمة ذاتها فحسب، بل نفعل ايضاً بالتاثير ذاته، سواء اكان تفكيرنا يدور حول تشدد اكبر او امتداد اوسع، وان لفظي « اكبر » و « اصغر » تثيران فينا الفكرة عينها في الحالتين معاً. فاذا تسألنا الآن علي ماذا تنطوي الفكرة هذه، يعرض علينا الوجدان صورة شامل ومشمول، فتمثل شدة اكبر من النشاط مثلاً كخيطة ملفوف اكثر طولاً، او كتابض يشغل مكاناً اوسع عندما يفلت. وهكذا نجد في فكرة التشدد، والكلمة التي تعبر عنها ايضاً صورة انصرام حالي وبالتالي تمدد فيما بعد، او صورة امتداد مضر، او فضاء منكش اذا جاز لنا التعبير هكذا بهذه الطريقة. فلنعلمن اذن باننا نعبر عن المتشدد بالتمدّد، واننا نقابل بين شدتين، او نعبر عن هذه المقابلة على الاقل، بمجدسنا المبهم لنسبة امتدادين فيما بينها. ولكن طبيعة هذه العملية هي

التي يصعب علينا حلّها .

ان الحل الذي يتبادر حالاً الى الذهن ، عندما نخوض غمار هذا البحث ، انما هو تحديد شدة احساس ما او حالة من حالات (انا) بعدد العلل المادية القابلة القياس ، وامتداد هذه العلل الناتج عنها الاحساس . ولا شك بان احساساً ضوئياً اشد هو الذي حدث او سيحدث بواسطة عدد اكبر من المصادر المشعة المتائلة فيما بينها ، والكائنة على مجال واحد من البعد . ولكننا كثيراً ما نحكم على شدة المعلول دون ان نقف على طبيعة العلة ومقدارها . وغالباً ما نساق بشدة المعلول ذاته الى المخاطرة في التكهن عن عدد العلل وطبيعتها ، فنقوم هكذا احكام حواسنا التي تربنا العلل نافية في باديء الامر . وعبثاً يتعلل باننا نقابل اذ ذاك الحالة الحاضرة في (انا) باحدى الحالات السابقة التي نكون قد ادركنا فيها العلة والمعلول ادراكاً تاماً في آن واحد . كذا نتصرف في معظم الاحايين دون ريب ، ولكننا لا نعلل البتة حينذاك فروقات الشدة التي تقيّمها بين النفسانيات العميقة المستقر ، الصادرة عنّا لا عن سبب خارجي . ونحن لا نتورع من جهة ثانية بمثل هذه الجرأة في اصدار حكم من الاحكام على شدة حالة نفسانية الا عندما تسترعي انتباهنا الناحية النفسانية فقط من المظهر ، او عندما يعسر علينا قياس العلة الخارجية التي يُناط بها هذا المظهر . وهكذا نرى بان الألم الذي يبتابنا حين ينزع احد نواجذنا يربو على الام الذي نشعر به عندما نقتلع شعرة من رؤوسنا . ولا يخامر الفنان شك يوماً من الايام بان اللذة التي تحتلج بها جوارحه ، حينما يقف امام لوحة فنية زيتية لمصور ماهر استاذ ، تفوق شدة ما يحس به عندما ينظر الى يافطة مخزن تجاري . وليس من الضروري ان نكون قد سمعنا بقوى جاذبية الالتصاق* لتثبت انه عندما يلوي نصلة فولاذية نصرف نشاطاً اقل مما نبذله حين نطوي قضيباً من حديد . وهكذا نقابل غالباً بين شديتين من الشدائد دون اقل تقدير منا لعدد العلل وشكل عملها وامتدادها .

ثمّة مجال آخر ايضاً في الواقع لافتراض مماثل ادق . نحن نعلم بان النظريات الآلية ، ولا سيما الحركية* منها ، تميل الى تعليل ما في الاجسام ، من خصائص ظاهرية وحسية ، باهتزازات محدودة تحدث في دقائق هذه الاجسام ، وان البعض يتنبأون عن البرهنة التي تتحول فيها الفروقات المتشددة في الكيفيات ، اي في احساساتنا ، الى فروقات امتدادية في التغيرات التي تعقبها . الا يجوز لنا القول باننا نحسن هذه النظريات ، وان كنا لم نقف عليها ، واننا نحس اهتزازاً اوسع في الصوت الاشد المنتشر ضمن الوسط المرتج ، واننا نشير الى

هذه النسبة الرياضية الدقيقة ، على الرغم من ادراكنا ايها باهام ، عندما نجزم بان الصوت الفلاني اشد قوة ؟ الا يجوز لنا ، دون ان ننجح الى هذا البعد ، تقعيد قانون ينص بان لكل حالة وجدانية اهتزازاً يطابقها في دقائق المادة الدماغية وذراتها ، وان شدة الاحساس تقيس سعة هذه الاهتزازات الجزئية ، ونشابتها ، وامتدادها ؟ ان هذا الافتراض الاخير يوازي السابق احتمالاً على الاقل ، ولكنه لا يزيدنا معرفة في سبيل حل هذه المشكلة . فقد تكون شدة الاحساس دليلاً على وجود عمل قليل او كثير في متعضانا ، ولكن الوجدان وحده هو الذي يشعرونا بالاحساس وليس العمل الميكانيكي . ونحن نحكم ايضاً بشدة الاحساس على تراوح كمية العمل المنتج ، وهكذا نبقي الشدة اذن ، في الظاهر على الاقل ، خاصة من خصائص الاحساس ، ونظلم نطرح السؤال عنه دائماً : لماذا نقول عن شدة اقوى انها شدة اكبر ؟ ولماذا نفكر بكم اكبر ، او بكم اوسع ؟

في الشاعر العجف وقد ترجع صعوبة هذه المشكلة خصوصاً الى اننا نطلق اسماً واحداً على شدائد متباينة الطبيعة ، فتمثلها بطريقة واحدة ، كما يحدث ذلك مثلاً ، عندما تصور شدة عاطفة ، او شدة احساس ، او جهد من الجهود . ونحن نعلم ان الجهد يرافقه احساس عضلي ، وان الاحساسات ذاتها منوطة ببعض الشروط الفيزيقية التي تساهم بوجه الاحتمال في تقديراتنا لشدة هذه الاحساسات . ولكن هذه المظاهر لا تحدث الا على سطح الوجدان ملتحقة دائماً ، كما سنراه فيما بعد ، بادراكنا لحركة ما او لشيء من الاشياء الخارجية . غير ان النفس البشرية تنطوي على بعض الحالات القائمة بذاتها ، خطأ او صواباً : كالافراح الشديدة مثلاً ، والاحزان العميقة ، والاشواق المدركة ، والانفعالات الجمالية* . تلك حالات بسيطة لا يعسر علينا تحديدها شدة الصافية ، لانها خلو من كل عنصر امتدادي . وسنرى بان تشدد هذه الحالات « كيف » بالواقع ، او تنوع تصطبغ به عرمة نفسانياتنا المتراوحة قلة او كثرة ، وزيادة في الابضاح نقول : ان هذه الشدة هي عدد الحالات البسيطة ، قليلة كانت او كثيرة ، التي تتسرب الى الانفعال الاصلي وتضاف اليه .

خذ رغبة من الرغبات المهمة مثلاً ، وقد استحال بالندرج شوقاً شديداً ، تر بان ضالة شدة هذه الرغبة كانت تقوم باديء ذي بدء على كونها تبرز لك كأنها مفروزة على حدة ، غريبة عن جميع نواحي حياتك الباطنية الباقية . ومن ثم اخذت بالتمدد بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، متسربة الى عدد اكبر من العناصر

الفسانية ، ملونة ايها اذا صحّ القول هذا بصفتها الخاصة . وها ان نظرك الى مجمل الاشياء يظهر لك متغيراً الان الى حد بعيد : الاستدلال على انك مغمور بشوق عميق تلقحت به من ان الاشياء عينها لم تعد تطبعك بالانفعال ذاته ؟ لقد انتعشت الان جميع احساساتك وبعثت افكارك حية كلها من مرقدها ، فديت فيك كهارب الحياة كانك في ولادة جديدة . ونحن نشعر بما يعادل ذلك في البعض من الاحلام لانستشف فيها غير العادي من المؤلف ، ومع ذلك يرون من خلالها لا اعلم اي لحن مبتكر جديد . ذلك اننا كلما سبرنا الغور في بعيد الاعماق الوجدانية يمتنع علينا اعتبار هذه النفسانيات كاشياء ترصف . فاذا قلنا بان شيئاً من الاشياء يشغل حيزاً كبيراً في النفس ، او انه يملأ الحيز كله ، وجب علينا ان نقصد بذلك لا غير كون هذا الشيء قد غير تنوع الف من المدارك الحسية والتذكرات العديدة فينا ، دون ان يُستشف فيها مع هذا . ولكن الوجدان المحلل ينفر من هذا التمثيل الديناميكي وينزع نحو المعالم الواضحة والفوارق الناتئة التي يسهل عليه التعبير عنها بالالفاظ . وهو يؤثر الاشياء المحدودة الاطارات كذلك التي ندر كها في المكان . لذلك نفترض ، والحالة هذه ، بان رغبة من الرغبات قد اجتازت عبر مقادير تتابع مع بقاء كل شئ آخر على غرار السابق ، كانه يحق لنا التكلم ايضاً عن مقدار حيث لم يعد بعد من وجود لمكان او لكثرة . وكما يوجه هذا الوجدان المحلل ، نحو مركز محدود من المتعضى ، تلك التقلصات العضلية المتزايدة عددها على سطح الجسد ليجعل في هذا المركز نشاطا نامي التشدد ، هكذا نراه يجمد على حدة بشكل رغبة تتزايد تلك التغييرات المتدرجة التي تحدث في العرمة المبهمة من نفسانياتنا المتعاصرة . ولكن ذلك تغيير في الكيف لا في المقدار .

ان ما يجعل الامل لذة نستمرى الحياة بظلمة كوننا ننسج خيوط المستقبل على نولنا الخاص وفقاً لرغائبنا واهوائنا ، فيظهر لنا محاطاً في وقت واحد بهالة من الاشكال المبهمة الممكنة بالسواء . ولئن تحققت اكثر هذه الاشكال رغبة لدينا واقواها انطباقاً لمنازعتنا نضطر مع هذا الى التخلي عن الاشكال الباقية ، وبذلك نفقد منها قسماً كبيراً وعدداً عديداً . لذا تظل فكرة المستقبل اخصب بكثير من المستقبل ذاته لكونها مشحونة بلا نهاية من الممكنات ، فنستباح الامل اكثر من التملك والتحقيق ، ونؤثر الحلم على الواقعية .

لنحاول الآن استجلاء ما يقوم عليه تزايد شدة الفرح او الحزن في تلك الحالات الشاذة التي لا نرى فيها البتة اثراً من الآثار المادية او دليلاً من

دلالتها . فنرى بان الفرح الباطني ، كالشوق ، انما هو حادث نفسي يملأ في بادي امره احدى خلايا النفس البشرية ليس غير ، ومن ثم يتسورها شيئاً فشيئاً . وهو يشبه في احط مراتبه اتجاه نفسانياتنا نحو الغد ، فتعاقب افكارنا متسارعة بعد ذلك ، وتتلاحق احساساتنا بعجلة كأن الجاذبية تخفف من وطأتها ، فلا تكلفنا حركاتنا اذ ذاك العناء ذاته . واخيراً تدرك مداركنا الحسية وتذكاراتنا ، في اوج الفرح الاسمي ، درجة من الاثورية لا توصف تشبه النور او الوهج ، بحيث ندهش بما نحن فيه بعض الاحايين عندما نرجع الى انفسنا بانعكاف داخلي . وهكذا نجد عدة اشكال خاصة بالفرح الباطني الصرف ، وعدة مراحل متعاقبة هي تغييرات كيفية في عرمة حالاتنا النفسانية . غير ان عدد الحالات التي يدركها كل من هذه التغييرات يقل ويكثر ، ولكننا نعلم بالتمام مثلاً ، وان كنا لا نعلمها بوضوح محكم ، هل اذا كان فرحنا يخترق جميع انفعالاتنا اليومية ، او ان بعضاً منها يشرد عنه خارج اطاره . وهكذا نجزي المجال الذي يفصل شكلين من الفرح متلاصقين ، فيجعلها هذا التدرج من شكل الى شكل يوزان لنا بدورها كشدائد عاطفة واحدة في ذاتها لا تتغير الا تغييراً مقدارياً . ولا يصعب علينا الايضاح بان مراتب الحزن انما هي تغييرات كيفية ايضاً ، اذ يبدأ الحزن كاتجاه نحو الماضي او افتقار في احساساتنا وافكارنا كأن كلاً منها قائم الآن بومته في القليل الذي يعطيه ، فيوجد المستقبل بآبه علينا بآماده وآفاه ، ومن ثم يفضي بنا الحزن الى انسحاق . نعدم فيه ، فنشرب باعناقنا نحو الفناء . وهكذا تزيدنا لذة مريرة كل نكبة تحل بنا فتتقن بواسطتها انه لا نفع بعد الآن من النضال او الكفاح .

في العواطف الجمالية ولا تخلو العواطف الجمالية ايضاً من امثلة كهذه اكثر بروزاً تيمط لنا اللثام عن حقيقة تسرب عناصر جديدة تنصب مرثية في الانفعال الاصلي ، فتزيد مقداره على الرغم من كونها تقف عند حد تغير طبيعته ليس غير . فلنبحث الآن في ابسط هذه العواطف الجمالية ، اعني في الاحساس بالظرف او الحسن . وما الظرف في مستهل امره الا التمتع بيسر وارتياح بالحركات الخارجية . ولما كانت الحركات السهلة المريحة هي التي تتنادى فتتجاوب معبدة الطريق بعضها لبعض ، فانتنا ندرك في النهاية نوعاً من الرشاقة اسمى من الحركات التي كنا نحدسها ، ومن المواقف الحالية المرثية فيها تلك المواقف المقبلة . واذا كانت الحركات المنكسرة نفتقر الى الكياسة والظرف ، فلأن كل حركة منها تقنع بذاتها فلا تعلن اللاحقات بها ولا تفرس السبيل للحركات

التابعة لها . لذلك يؤثر الظرف شكل المنحنيات على المتكسرة ، لأن المستديرات من الخطوط يغير كل منها وجهة سيره في كل آونة وحين باتجاهات كثيرة ، لكل اتجاه جديد منها جذور ترمى عالقة في السابق له . ان اليسر او الارتياح في التنقل يصح رغبة فينا هنا لايقاف سير الوقت وتسير المستقبل في الحاضر . ولا يتنكب عنصر ثالث عن التدخل اذ ذاك عندما تسطو على الحركات الظرفية صولة الايقاع وتوافقها الموسيقى ايضاً . ذلك لأن الوزن والايقاع بوقظان فينا حدس ما يقوم به الفنان من الحركات ، فنعتقد اننا نحن فاعلو هذه الحركات وخالقوها . ولما كنا نحس تقريباً ذلك الموقف الذي سيتخذه الفنان ، يتراءى لنا بانه ينصاع صاغراً لإرادتنا حين يتخذه فعلاً . وهكذا يقيم توازن الايقاع بينه وبين انفسنا نوعاً من الترابط والتحاك ، فتصبح تلك التكرارات الدورية في الوزن كاسلاك خفية نلعب بها هذه الدمية الخيالية . فاذا تعثر الفنان او تعرقل ، ولو عبر لحظة وجيزة ، لما استطاعت بدنا الجزوعة الا ان تهب من رقدتها المستكنة بحركة حمسة كأنها تدفع به الى الامام ، او لتنوب عنه في قلب هذه الحركة التي استوعب ايقاعها الموسيقي فكرتنا كله وارادتنا جمعاء . ففي احساسنا للظرف اذن نوع من المشاركة الجسمية نستلحها عندما نستكنه سحرها وجمالها ، لانها تتلاءم والمشاركة الوجدانية التي يوحى لنا هذا التعاطف الجسيمي بمحذق ولباقة . ان هذا العنصر الاخير يصر فيه جميع العناصر الاخرى بعد اعلانها اياه ، فيميط لنا اللثام عن حقيقة سطوة الظرف وجمال سحره . فلو كان الظرف مجرد اقتصاد في النشاط ، كما اراده « سبنسر (١) » ، لما كنا ندرك اللذة الناجمة عنه . ولكن الحقيقة غير ذلك ، لاننا نستشف في كل ما فاق بظرفه ، ناهيك عن الرشاقة عنوان التنقل ، تباشير تحرك ممكن يدفق صوبنا او تهاويل تعاطف مضر يكاد يبدأ . ان هذا التعاطف المتحرك المتأهب دوماً لان مجود بنفسه سمحاً وسخاء ، هو ذاته جوهر الظرف السامي . وهكذا تكون الشدائد المتزايدة في شعورنا الجمالي هي ايضاً عواطف مختلفة يعلن فيها اللاحق بالسابق فيرى فيه ومن ثم يغشاه الى الابد . ان هذا النمو الكيفي هو عينه الذي نعلله كتغير مقداري لاننا نؤثر الاشياء البسيطة ، وتكبو لغتنا عجزاً عن اداء دقائق التحليل النفساني .

ولكي ندرك ان الاحساس بالجمال يستلزم هذا التدرج ايضاً حسبنا الامعان بالنظر في مضامين الجمال بدقة واحكام . وقد ترجع الصعوبة الكائنة في تحديدنا للجمال بالاكثر الى اننا نعتبر الجمال في الطبيعة سباقاً في كينونته على جمال

(1) Essais sur le progrès (trad. fr. page 283).

الفن ، وان المناهج الفنية ليست والحالة هذه الا مسالك يستطيع بها الفنان ان يعبر عن الجميل ، وهكذا يبقى الجمال بجوهره مغلقاً علينا عاصياً مبهماً . ولكن لتساءل الآن هل اذا كانت الطبيعة جميلة خلافاً لهذا التألف البهيج الحسن الكائن في اساليبنا الفنية ، وهل اذا كان لا يحق لنا ان نعتبر الفن من ثم سباقاً في كينونته على الطبيعة الخارجية . ومن المستحسن في مثل هذا الموقف الا نتورط في الابعاد ، فنسوق درسنا وفقاً لشروط البحث القويم الصحيح ، مسكنين الجميل بايديه ذي بدء في الروائع الفنية الصادرة عن نشاط مدرك واع . ومن ثم نهبط بانتقال متدرج حذق الى الطبيعة الفنانة حسب هواها الخاص ومنازعتها الشخصية . فتري بان الفن يرمي الى ارقاد القوى العاملة فينا ، او المقاومة بالاحرى في شخصيتنا ، وسوقنا هكذا صاغرين الى حالة من الطاعة التامة التي نحقق فيها تلك الفكرة الموحاة لنا ، فتتحد والعاطفة المعبر عنها . واننا نعثر في الاساليب الفنية على تلك المناهج التي تتوصل بها عادة الى الاستهواء المغناطيسي ، غير انها اخف وطأة واكثر لطفاً وروحانية . كذا يوقف الوزن والايقاع في الموسيقى سريان افكارنا واحساساتنا المألوفة يجعلها انتباهنا يتذبذب داخل اطار معين من النقاط المحدودة ، وبتسلطها علينا بعنف واشتداد بحيث 'نملاً حزناً عميقاً لاقل همس خفيف نسعه من صوت يثن . واذا كانت روحنا تتفعل بالاصوات الموسيقية اكثر مما تتأثر باصوات الطبيعة ، فلان الطبيعة لا تخرج عن حد التعبير عن العواطف حال كون الموسيقى ترشقنا بها عن طريق الابعاء والايام . فاذا تساءلنا الآن عن ممكن الجمال الشعري يتضح لنا بان الشاعر هو ذلك المحلوق الذي تتحول فيه العواطف الى صور ، والصور عينها الى كلمات موقعة متوازنة لتفصح عن تلك الصور . ولو استعرضنا بدورنا نحن هذه الصور نفسها امام اعيننا لما تأخرنا عن ان نفعل ايضاً بالعاطفة التي كانت المعادل الانفعالي لهذه الصور . غير انها لا تتحقق لنا هذه الصور بقوة عنيفة امام بصيرتنا الا اذا حُكَّت حركات متوازنة موقعة تهدد نفسنا لتغفى روحنا وتنسى ذاتها كأنها في حلم تفكر مع الشاعر وتري ما يراه . والفنون التجسيمية* ايضاً تطبعنا بمثل هذا التأثير عينه عن طريق هذا الرسوخ المستقر الذي تفرضه على الحياة ، فيسري هذا الجود بعدوى جسمي الى انتباه الناظر . واذا كانت نحاتة الاقدمين في بدائع تماثيلهم تعبر عن انفعالات خفيفة تكاد تلمس هذه النحاتة لمساً سريعاً كهب النسيم ، فان الوجه الشاحب الذي يتشح به الحجر ، مقابلة لذلك ، يلبس العاطفة المعبر عنها والحركة المبدؤ بها لا اعلم اي شيء مبوم ابدي يستوعب فكرنا كله ،

وفيه تحقق ارادتنا . وانا نجد ايضاً في فن العمارة ، وسط هذا الرسوخ الثابت والجمود الرهيب ، ما يشبه الايقاع . فانساق الاشكال وتكرار الصورة البنائية عنها يهددان ادراكنا ضمن نقاط متماثلة تتعري بها من هذه التغييرات المستمرة في حياتنا اليومية . وان مجرد الايمان حينذاك انى فكرة من الافكار لهو كاف كي تطفح روحنا بالفكرة هذه كلها . وهكذا يرمي الفن الى الايمان والعدوى ، فيطبعنا بعواطف لا يرسلها غير موحاة بطرف خفيف من الابعاد ، محجباً بجله ارادته عن تقليد الطبيعة عندما يجد اساليب انفذ وامضى . قد نوحى الطبيعة كالفن ايضاً ، ولكنها خلو من الايقاع غير انها تستعيب عن ذلك بالالفة الدائمة التي تخلقها بيننا وبينها مشاركتنا معاً في تلقي العوامل والمؤثرات ، الامر الذي يجعلنا نتعاطف بالسواء عند اقل ايمان كما يناخ المنوم لسطوة المنوم بقوة الاستهواء والتغنظ . اما هذا التعاطف فانه لا يحدث خاصة الا عندما يعرض علينا الجمال من الكائنات ما اعتدلت مقاييسها بحيث يشطر انتباهنا شطراً عادلاً بين اجزائه ، دون ان يطول بنا الوقوف على قسم واحد من هذه الاقسام . ولما كانت ادراكنا يتهدد بهذا النوع من الانساق فلا شيء يوقف من ثم انطلاق حساسيته الدافقة التي ترقب زوال العقبة لتنفعل عن طريق التعاطف . فيتضح لنا من هذا التحليل بان العاطفة الجمالية ليست عاطفة خاصة ، بل ان كل عاطفة تأخذ طابعاً جمالياً شرط ان لا تسبب بل توحى . فتارة تكاد نعرقل فينا الفكرة الموحاة نسيج نفسانباتنا التي تؤلف تاريخنا ، وطوراً تسلخ انتباهنا عنها دون ان نفقدها رؤيتها مع ذلك ، وحياناً تصعقنا بعنف فتستوعبنا وتتسلط على انفسنا بكاملها . وهكذا نرى في نمو العاطفة الجمالية مراحل متميزة كما هي الحالة في الاستهواء المغناطيسي . وهذه المراحل ليست تغييرات في الدرجة بقدر ما هي تغييرات في الحالة والطبيعة . ولكن قسمة الروائع الفنية لا تقاس بالقوة التي تسطو بها علينا العاطفة الموحاة بقدر ما تقاس بثروة هذه العاطفة نفسها وغناها . وبعبارة اخرى اننا نميز غريزياً ، بجانب المراتب في الشدة ، مراتب عمق وارتفاع . فنرى في تحليلنا لهذا المفهوم الاخير بان عواطف الفنان وافكاره التي يوحىها لنا ، تلخص وتعبّر عن قسم من تاريخه ، قل هذا التاريخ او كثير . فاذا كان الفن الذي لا يُنتج غير احساسات هو فن هزيل ، فلان التحليل لا يرى غالباً في الاحساس شيئاً آخر سوى هذا الاحساس عينه . ولكن اكثر الانفعالات تشحن معها الف عاطفة وفكر واحساس يدخر فيها ، وهكذا نرى بان كل انفعال هو حالة فريدة لا تتجدد ، علينا ان نعيش

ثانية حياة ذلك الذي خبرها كي نعيها في نسختها الاصلية المركبة . والفنان يرمي الى ان يدخلنا الى اعماق هذا الانفعال الفني ، الشخصي ، المبكر ، والى ان يجعلنا نحس الشيء الذي لم يستطع افهامنا اياه . لذلك نراه يلتقط من بين انعكاسات هذه العاطفة الى الخارج ، تلك التي يقلدها جسنا آلياً عندما يلحظها ، وان كان بحفة ، بحيث انه يضعنا دفعة واحدة في الحالة النفسانية الفائقة التي اثارت تلك الانعكاسات الخارجية . وهكذا تدكّ السدود ، وتقع الحواجز التي يقيسها الزمان والمكان بين وجدانه ووجداننا . فبقدر ما تكون تلك العاطفة التي يدخلنا فيها خصبة مليئة بالاحساسات والانفعالات ، بقدر ما يكون للجمال المعبر عنه عمق وارتفاع . ان الشدائد المتعاقبة في العاطفة الجمالية هي تغييرات حالة حادثة فينا ، تكون مراتب العمق فيها عدد النفسانيات الاولية ، قلت او كثرت ، التي نستشفها بغموض في الانفعال الاصيل .

لنتفحص الان العواطف الاخلاقية . فنرى بان الشفقة مثلاً تقوم بدياً على ان نضع انفسنا بالفكر محل الاخرين ، وننألم المبهم . ولو كانت الشفقة غير هذا ، وفقاً لما يزعمه البعض ، لاندفعت بنا نحو الفرار من البائسين بدل ان ندهم يد المعونة ، لأن الألم يرعب نفسنا بالفطرة فنسترهبه ونخافه . قد يكون الاحساس بالرعب نقطة الانطلاق في عاطفة الشفقة . ولكن عنصراً ثالثاً لا يتنكّب عن الالتحاق به ، وهو الافتقار الى مساعدة الآخرين ، والتفريغ عن كرههم . فهل نقول مع « لاروشفوكول » بان هذا التعاطف المزعوم يكون احتساباً لا غير او « ادراكاً سابقاً فظناً للالام ؟ » . قد يلعب الخوف بعض الدور ايضاً في ايقاظ عاطفة الرحمة التي تثيرها فينا الالام عند الغير . ولكن هذه النواحي ليست الا مظاهر سفلية من الشفقة : لأن الشفقة الحقة هي اشتهاء الألم لا الاستطارة منه خوفاً وارتعاباً . الشفقة رغبة خفيفة نكاد نريدها محققة ، ومع ذلك تثار فينا قسراً كأن الطبيعة قد افتوت عدائاً جائراً ، فوجب علينا والحالة هذه ان نتدخل في الامر لنزيل شبهة كل مؤامرة نحوكها مع الطبيعة في هذا الجور . ان جوهر الشفقة اذن هو افتقار الى التواضع والتواضع ، وتوقان الى خفض الجناح . ولهذا التلهف المؤلم سحر خاص مع ذلك لانه يرفعنا في سريرتنا ، يفعلو شأننا في اعتبار انفسنا ونشعر اننا في اعتلاء يسمو بنا عن المنافع الحسية التي يعتق منها فكرنا ولو الى حين . فتشدد الشفقة نمو كفي في اذن في عبورنا من الكره الى الخوف ، ومن الخوف الى التعاطف ، ومن التعاطف الى التواضع .

النشاط العضلي سنقف عند هذا الحد في دراستنا التحليلية، لأن الحالات النفسانية التي أتينا على تحديدها فوق هذا الكلام إنما هي حالات غاية في الندرة، إذ لا نعثر البتة على شوق، أو رغبة، أو فرح، أو على حزن من الاحزان، لا تماشيه بعض العلامات الجسمية، وهي علامات حيثما ظهرت تساعدنا بوجه الاجمال على تقدير الشدائد. أما الاحساسات المحضة فانها ترتبط علانية بسببها الخارجي ارتباطاً قوياً، وعلى الرغم من انه لا يمكننا تحديد تشدد الاحساسات بمقدار سببها، فثمة دون ريب علاقة من العلاقات بين هذين الطرفين. وكثيراً ما يبرز الوجدان في البعض من هذه المظاهر بشكل تبسط امتدادي، كما هو الحال في النشاط العضلي مثلاً. فلنجابه الآن هذه الظاهرة الاخيرة، منتقلين هكذا دفعة واحدة الى الطرف الثاني من سلسلة الوقائع النفسانية.

إذا كان ثمة من مظهر يعرض على الوجدان فوراً بشكل كمّي، أو على الأقل بشكل مقداري، إنما هو النشاط العضلي دون ريب. إذ يتراءى لنا فيه بان القوة النفسانية محتبسة داخل الروح كالأعاصير المأسورة في كهف «إبول» تترصد السوانح المناسبة لتندفع الى الخارج. ولكن الارادة توقبها شاقة لها فجوة تتصرف منها بين الفينة والفينة، معادلةً هذا الانصباب معادلةً دقيقة تتفق والعمل المقصود. وإذا معنا التبصر في هذه النظرية المنحرفة في النشاط، يتضح لنا بانها تساهم مساهمة فعالة في تكوين عقيدتنا بالمقادير المتشددة. ولما كان النشاط العضلي المنبسط في المكان، والمعلن لنا بمظاهر تقاس، يبرز لنا كأنه وُجد قبل هذه الانعكاسات الى الخارج، ولكن بحجم اقل وفي حالة من الانكماش، فلا نتردد من ان نصرم هذا الحجم اكثر فاكثر متوهمين في النهاية بان حالة نفسانية محضة، لا تشغل فضاء ما، هي مقدار على الرغم من كل هذا. والعلم ذاته يميل الى تعزيز هذا الوهم الذي يتدرّج به الحس المشترك في هذه النقطة. فيقول لنا الأستاذ باين (HAIN) مثلاً «ان الاحساس التابع للحركة العضلية يتفق والتيار المركزي الطارد* في النشاط العصبي» فالذي يدركه الوجدان اذن هنا إنما هو قذف هذه القوة العصبية. ويتحدث الأستاذ وونط (WUNDT) أيضاً عن احساس محوري المصدر مرافق لتحريك العضلات المقصود، وقد ذكر مثل المفلوج «الذي يحس بالقوة التي يبذلها عندما يهيم برفع ساقه، وان بقي هذا الساق جامداً دون حراك (١)» وان اكثر المؤلفين

(1) Psychologie physiologique, trad. Rouvier, tome I, page 423

يقفون بجانب هذا الرأي الذي كاد يصبح تَموساً مطلقاً في العلوم الإيجابية لو لم يقم منذ بضع سنوات الأستاذ ولیم جیمس (WILLIAM JAMES) لافناً انظار الفيزيولوجيين الى ظواهر قلّ من يلاحظها ، ومع ذلك فهي تضرب بسهم وافر من الخطورة .

عندما يحاول المفلوج رفع العضو المشلول يصعب عليه كثيراً ان ينجز هذه الحركة المقصودة . غير انه يحدث حركة ثانية ، شاء ذلك ام اباه ، في ناحية من النواحي الأخرى ، والا لما كان ثمة من وجود للاحساس بالنشاط (١) . وكان فوليان (VULPIAN) قد سبقه الى الإشارة بانه لو طلب من مفلوج نصفي* ان يطبق قبضة يده المريضة لاطبق اليد المتعافية دون ما ارادة منه . وقد نوّه فريبه (٢) (FERMIER) الى ما هو أشد من هذا ايضاً ، ذلك ان تبسط ذراعك جانباً سبابتك قليلاً كأنك موشك ان تضغط على نابض المسدس . قد لا تحرك أصبعك ، ولا تقلص عضلا من عضلات يدك ، ولا تبدي حركة ظاهرة ، ومع ذلك تحس بانك تبذل شيئاً من النشاط . واذا احكمت الروية تتيقن من ان هذا الاحساس في النشاط يتفق وجمود عضلات صدرك ، وان اللهاة* تقفل ، وانك تقلص عضلاتك التنفسية تقلصاً شديداً . ولكن هذا الاحساس بالنشاط يتلاشى ويمحي اثره حالما يستعيد التنفس مجراه الطبيعي ، ما لم تكن قد حركت اصبعك بالواقع . وهكذا تبين لنا هذه الحوادث اننا لا ندرك قوة تقذفها ، بل حركة العضلات التي تنتج عنها القوة . ويرجع ابتكار الأستاذ ولیم جيمس الى انه قد اثبت هذا الافتراض بامثلة لا تدحض البتة . وهكذا يحاول المريض ان يميل بطرف عينه الى جهة اليمين عندما يشل العضل الوحشي الايمن* في العين . ومع ذلك تتراءى له الاشياء كأنها في اندفاع الى الناحية اليسرى . ولما كان عمل الارادة لم يحدث شيئاً ، فقد لزم على حد تعبير هلمولتز (٣) (HELMHOLTZ) ان تكون قوة الارادة قد عرضت على الوجدان . وقد رأى الأستاذ جيمس انهم لا يعيرون انتباههم الى ما يحدث في العين الثانية المقطاة حين التجربة . فهي تتحرك مع ذلك ، ولا يعسر علينا اثباته لان الذي نشعرنا بالنشاط ، ويقنعنا ايضاً بحركة الاشياء التي تدركها العين اليسرى ، انما هي العين اليسرى التي يحس بها الوجدان . وقد ساق هذه الملاحظات

(1) W. James, Le sentiment de l'effort (Critique philosophique, 1880, tome II)

(2) Les fonctions du cerveau, page 358 (trad. fr)

(3) Optique physiologique, trad. fr, page 764.

المتعددة الاستاذ جيمس انى التثبت من ان احساسنا بالنشاط انما هو احساس مركزي جاذب ، لا مركزي طارد . فنحن لا نعي قوة نقتفيها في المتعضى ، لان احساسنا بقوة عضلية « انما هو احساس مركب ناتج عن العضلات المتقلصة ، والرباطات المتشددة ، والمفاصل المنكشثة ، وجمود الصدر ، وفتحة اللبابة ، وتقطب الحاجبين ، وصرّ الفكين بعضهما على بعض » وبالأجمال هو احساس صادر عن جميع نقاط المحيط حيث تحدث القوة تغييراً من التغييرات .

لا نريد التشيع لحزب من الاحزاب في هذه المساجلة ، ولا نرمي ايضاً الى معرفة هل اذا كان الاحساس بالقوة محوري المصدر ام محيطياً . انما جيل وكذا ان نعرف على ماذا يقوم ادراكنا لشئنا . وحسبنا مراقبة انفسنا بامعان واحكام انصل ، في هذه النقطة ، الى نتيجة لم يشر اليها الاستاذ ولم جيمس ، ولكنها تتفق تام الاتفاق مع روح مبدئه ، وهي انه كلما زادت القوة زاد معها عدد العضلات المتقلصة التي تساهم فيها ، وان ادراكنا الظاهري لقوة اشد في مركز معين من المتعضى يرجع بالواقع الى ادراكنا لسطح اوسع في الجسم يساهم في هذه العملية .

حاول مثلا ان تشد « اكثر فاكثر » على قبضة يدك ، يظهر لك ان الاحساس بالنشاط القائم برمته في يدك يمرّ بالتعاقب عبر مقادير متزايدة . ويدك هذه لا تشعر بالواقع الا بالشيء عنه دائماً ، ولكن الاحساس الكائن في قبضة يدك بايديء ذي بدء ، يأخذ باجتياح ذراعك من ثم ، متسلقاً بعد ذلك كتفك ، فاذا بذراعك الثاني يتشنج ، فساقك ، وفي النهاية يتعطل التنفس ، ثم يساهم الجسم كله في هذه العملية . ولكنك لا تعي مباشرة هذه الحركات المتلاحقة ما لم تحذّر الى ذلك . فقد كنت تعتقد حتى الآن ان ثمة حالة وجدانية واحدة تتغير مقدارياً . وكنت تظن ، عندما تصرم شفّيتك مثلا الواحدة على الاخرى اكثر فاكثر ، انك تشعر في هذا المركز باحساس واحد يتزايد قوة . وهنا ايضاً يتضح لك ، اذا امعنت الروية بعض الشيء ، بان هذا الاحساس يظل ذاته ، ولكن بعض عضلات الوجه ، والرأس ، فباقي الجسم ، تكون قد ساهمت في هذه العملية . لقد شعرت بهذا الغزو المتدرج ، او التوسع السطحي القائم على كونه تغييراً كميّاً بالواقع . وبما انك لم تفكر الا بشفّيتك المصورتين فقد اقيمت الازدياد في هذا المركز ، وجعلت القوة النفسانية المبتولة مقداراً ، وان لم تكن على شيء من الامتداد . راقب مثلا رجلا يرفع اثقالا يتزايد وزنها اكثر فاكثر ، ترّابث التقلص العضلي

ينتشعب شيئاً فشيئاً في جميع نواحي جسمه . اما الاحساس الخاص الذي يشعر به في ذراعه العامل فانه يبقى ثابتاً مدة طويلة من الزمن ، ولا يتغير البتة الا كفيفاً ، اذ ينقلب للثقل تبعاً فالماً . ومع ذلك يعتقد الرجل انه يعي ازدياداً مستمراً من النشاط النفساني المزدحم في الذراع ، فلا ينتبه الى خطأه الا اذا حُذِر الى ذلك ، لما هو عليه من الميل الى قياس الحالة النفسانية المعطاة بالحركات الواعية التي تتبعها . ان زبدة ما نستنتجه من هذه الوقائع ومن كثير غيرها ايضاً مماثل لها ، ترينا بان وعينا للازدياد في النشاط العضلي يرجع الى ادراك مزدوج لعدد اكبر من الاحساسات المحيطة ولتغيير كيفي يحدث في البعض من هذه الاحساسات .

وها نحن مساقون ايضاً لتحديد قوة سطحية كما فعلنا ذلك في تحديدنا لشدة عاطفة عميقة من عواطف النفس . ففي الحالتين نمو كيفي وتعمّد متزايد ندركه باهم . ولكن الوجدان الذي ألف التفكير فضائياً واعتاد على مخاطبة ذاته بما يفكر ، هذا الوجدان يشير الى العاطفة بكلمة واحدة جاعلاً القوة في المركز الذي تعطي فيه عملاً نافعاً . اذ ذاك يدرك قوة متشابهة لذاتها دائماً ، لا تتزايد الا في الهل الذي عينه لها ، ويدرك عاطفة تنمو دون ان تتغير طبيعتها لأن اسمها لم يتغير . وقد نجد خطأ الوجدان هذا كائناً ايضاً في تعليقه الحالات المتوسطة الحادثة بين القوى السطحية والعواطف العميقة المستقر . فثمة عدد كبير من الحالات النفسانية التي ترافقها حقاً تقلصات عضلية واحساسات محيطية ، فتتأسك تارة هذه العناصر السطحية فيما بينها بفكرة تأملية محضة ، وطوراً تترايط بعضها مع بعض بتشيل عملي ، فتكون القوة عقلية او انتباهاً في الحالة الاولى ، وفي الحالة الثانية تحدث انفعالات عنيفة حادة الجيشان كالغضب ، والخوف ، والحزن ، والشوق ، والرغبة ، وبعض انواع الفرح . فلنوضحنا باقتضاب ان تحديد الشدة ذاته ينطبق هنا ايضاً على هذه الحالات المتوسطة .

في الانتباه والسمود ليس الانتباه مجرد مظهر فيزيولوجي . غير اننا لا ننكر مع ذلك ما يوافق من الحركات التي لا تكون علته ولا معلوكه ، بل قسماً منه تبرزه امتداداً كما اشار الى ذلك بدقة واحكام الاستاذ ريبو (١) (RIBOT) . وقد كان فخنر (FECHNER) يرجع الاحساس بقوة الانتباه في حاسة من الحواس الى الاحساس « الحادث بتحريكنا انعكاسياً تلك العضلات

(1) Le mécanisme de l'attention. Alcan 1888.

المتصلة بمختلف الاجهزة الحسية . وقد استرعى انتباهه هذا الاحساس الواضح الناجم عن تقلص جلدة الرأس وتشددها ، وهذا الضغط الكابس على مجمل الجمجمة الذي نشعر به متجهاً من الخارج الى الداخل ، عندما نبذل جهداً جهيداً لتتذكر شيئاً قد طواه النسيان في غياب ظلماته . وقد درس (ريبو) عن كتب تلك الحركات الخاصة بالانتباه الارادي ، فقال « تكثر عصابة الجبهة في الانتباه ، ثم يشد صوبه ... هذا العضل الحاجب ، فيرفعه راسماً خطوطاً معترضة فوق الجبهة ... وفي اشد الحالات انتباهاً ، يُفتح الفم باتساع ، فتتدد الشفتان عند الصغار وعند الكبار ، وترتخيان في الانتباه الشديد ، او يحدث ما يشبه الرغوة » . لا شك بان الانتباه يقوم على عنصر نفسي صرف ، إن لم يكن غير هذا الاقصاء المقصود لكل فكرة غريبة لا تشغل اهتمامنا . ومع ذلك يظل الاعتقاد راسخاً فينا ، بعد ان نقوم بهذا الاقصاء ، اننا نعي تشدداً متزايداً في النفس او قوة لامادية في حالة النوم . والحقيقة هي اننا لا نجد في هذا الانفعال ، عندما نخلله ، شيئاً آخر غير احساس لتقلص عضلي يحتاج سطحياً او بتغير في طبيعته ، فتتحول فيه الشدة من الضغط ، الى التعب ، فالى الالم بعد ذلك .

ونحن لا نرى فرقاً اساسياً بين قوة الانتباه وما يمكننا تسميته بنشاط تشدد النفس كالرغبة الحادة مثلاً ، او الغضب الهائج ، او الحب العنيف ، او الحقد الجامح . فلكل من هذه الحالات جهاز من التقلصات العضلية التي تربطها فيما بينها فكرة من الافكار ، هي في الانتباه الفكرة الواعية لأن ندرک ، وفي الانفعال الفكرة اللاواعية التي تدفعنا الى العمل . وان شدة هذه الانفعالات القوية ليست شيئاً آخر بالواقع غير التشدد العضلي الذي يرافقها . وقد وصف (داروين) بدقة فائقة دلائل الغضب الفيزيولوجية ، قال : « تتسارع نبضات القلب ، ويحمر الوجه متشحاً بشحوب ترابي ، ثم يتضائل التنفس ، ويرتفع الصدر ، وتتسع دائرتا الاتق المرتخفت ، وكثيراً ما يضطرب الجسم بكامله ، ثم يعطل الصوت ، وتخرج الاسنان ، فيتبيح الجهاز العصبي عادة بعد ذلك لأي عمل مثير جنوني ... وان هذه الحركات تمثل لنا على وجه التقريب ذلك التأهب للضرب والمشاجرة مع العدو (١) » . لن نذهب الى المدى الذي جنح اليه الاستاذ جيمس (٢) في زعمه بان الانفعال الغضبي انما هو مجموع هذه الاحساسات العضوية . ففي الحق دائماً عنصر

(1) Expression des émotions. page 79

(2) What is an emotion ? Mind 1884 page 189

نفساني لا يتحول ، ان لم يكن غير فكرة الضرب هذه او المشاجرة التي تكلم عنها داروين ، وهي فكرة تسيّر حركات مختلفة عديدة في اتجاه واحد مشترك . وعلى الرغم من ان هذه الفكرة هي التي تحدد سير الحالة الانفعالية والحركات المرافقة لها في وجهة ما ، فان الشدة المتزايدة في الحالة عنها لا تكون شيئاً آخر غير الاهتزاز المتزايد في المتعضى ، وهو اهتزاز لا يصعب على الوجدان قياسه بعدد السطوح المساهمة وامتدادها . وعبئاً يتعللون ان ثمة ثورات غضبية مكبوتة اشد ، ذلك انه حينما ينطلق الانفعال حراً الى الخارج لا يقف الوجدان عند حد تفاصيل الحركات المعاصرة . ولكنه يقف عندها بالعكس ويصب قواه عليها وقت يحاول اخفائها . فاذا حذفنا كل اثر اهتزازي عضوي ، وكل ميل ارادي لتقلص عضلي ، لا يرسب من الغضب الا فكرة لا غير . واذا اصررت على جعله انفعالا ، يصعب عليك ان تغزو اليه شدة من الشدائد .

في الانفعالات الغوية يقول هربرت سبنسر (١) « يعتبر عن الخوف الشديد بصيحات قوية ، ومحاولات للهرب او الاختباء ، وباضطرابات ونبضات » ونحن نذهب الى ابعد من ذلك فنقول بان هذه الحركات انما هي قسم من الخوف ذاته ، بها يصير انفعالا ذا قابلية لاجتياز مراتب مختلفة من التشدد . فاذا الفينا هذه الحركات جمعا لا يرسب من الخوف المتراوح شدة غير فكرة الخوف ، وهو تمثيل عقلي تصور به خطراً سيداهمنا ، علينا ان نتحاشاه . وثمة ايضاً حدة في الالم ، والفرح ، والكراهة ، والحياة ، تسبب عنها الحركات التي تكون بمثابة ردود فعلية يبدأ بها المتعضى ويدركها الوجدان . قال داروين (٢) : « يحقق القلب في الحب ، وتتسارع اللهثات ، ويحمر الوجه ايضاً » . والكراهة كذلك يطبعنا بحركات اشمئزاز نكررها ، دون وعي منا ، وان كان الحياة مجرد تفكير باطني في الماضي . وهكذا نرى بان حدة هذه الانفعالات تقدر بعدد الاحساسات المحيطة ، وبطبيعة هذه الاحساسات التي ترافق الانفعالات . فكما خد هيجان الحالة الانفعالية مستكناً في الاغوار ، تحولت هذه الاحساسات المحيطة الى عناصر باطنية ، فلا تعود حركاتنا الخارجية هي التي تنتجى وجهة ما ، بعدد قليل او كثير ، بل افكارنا وتذكراتنا ووجدانياتنا عموماً . فلا يوجد اذن فرق

(1) Principes de Psychologie, t I, p. 523

(2) Expression des émotions. page 84.

اساسي ، من حيث الشدة ، بين العواطف العميقة المستقر التي نكلمنا عنها في بدء رسالتنا هذه ، وبين الانفعالات الحادة او العنيفة التي اتينا على استعراضها الان . واذا قلنا بان الحب ، او الحقد ، او الرغبة ، يزداد كل منه تهيجاً ، يكون معنى ذلك انه ينعكس الى الخارج ، ويشع على السطح ، فتقوم الاحساسات المحيطية مقام العناصر الباطنية . ولكن شدة هذه العواطف ، سواء اكانت عميقة او سطحية ، واعية او غير واعية ، تشمل كثرة من الحالات البسيطة التي يستشفيها الوجدان فيها بشيء من الغموض .

في الامساسات العاطفية لقد اكتفينا حتى الان بقوى وعواطف هي حالات مركبة لا تقوم شدتها تمام القيام على علة خارجية . ولكن الاحساسات تظهر لنا ايضاً كأنها حالات بسيطة : فعلى اي شيء يقوم مقدارها ؟ تتغير شدة الاحساسات بتغير العلة الخارجية . والشدة عندها انما هي المعادل الوجداني لهذه الاحساسات . فكيف نعلل تسرب الكم الى معلول لا يقبل الامتداد والتجزئة ؟ من واجبتنا ، في الرد على هذا السؤال ، ان نميز اولاً بين الاحساسات العاطفية والاحساسات التمثيلية . ولا شك باننا نعبر تدريجياً من الواحدة الى الاخرى ، وانه يوجد عنصر عاطفي في اكثر تميلاتنا البسيطة . فلا شيء يمنعنا ، والحالة هذه ، من ان نستخرج هذا العنصر ، ونبحث بانفراد عن الشيء الذي تقوم عليه شدة احساس عاطفي كلذة من اللذات مثلاً ، او ألم من الآلام .

قد تعود صعوبة هذه المشكلة الى كونها مسببة خصوصاً عن اعتبارنا الحالة العاطفية ترجمة وجدانية لاهتزاز عضوي، او كصدى داخلي لعلة خارجية . فنلاحظ عادة ان اهتزازاً عصبياً اكبر يطابقه احساس اشد في اغلب الاحايين ، ولما كانت هذه الاهتزازات غير واعية ، من حيث انها حركات ، لانها تعرض على الوجدان بشكل احساس لا يماثلها البتة ، فلا نرى نحن كيف ان هذه الاهتزازات تنقل الى الاحساس شيئاً من مقدارها الخاص ، اذ لا نجد رابطة مشتركة بين مقادير يمكن رصفها كاتساع الارتجاج مثلاً ، وبين احساسات لامكانية . واذا تراءى لنا ان الاحساس الاشد يشمل الاحساس الاقل شدة ، متخذاً بذلك شكل مقدار كالاhtزاز العضوي عنه ، فلانه يحتفظ بشيء من الاهتزاز الطبيعي المقابل له . غير انه لا يحتفظ بشيء من الاهتزاز إن كان مجرد ترجمة وجدانية لحركة الذرات الدقيقة . فهذه الحركة بذلك عنه انها تترجم بلذة من اللذات ، او بألم من الآلام ، تبقى غير وجدانية من حيث انها

حركة جزئية .

فلنساءل الآن بعد ذلك هل اذا كان الالم او اللذة ، بدل ان يعبرا فقط عما حدث او يحدث الآن في المتعضي كما نعتده عادة ، لا يشيران ايضاً الى ما سيحدث او يتحفز لأن يحدث في المستقبل . اذ لا يحتمل بالواقع ان تكون الطبيعة عملية الى هذا الحد باسنادها الى الوجدان مجرد المهبة النفعية لا غير في ارساده ايانا عن الماضي او الحاضر فقط اللذين يكونان قد خرجا عن حيز مقدرتنا . فلننتبهن علاوة على ذلك باننا نعبر صعوداً بتدرج خفي من الحركات الآلية الى الحركات الحرة المفارقة للاولى ، وبان هذه الاخيرة تعرض علينا احساساً عاطفياً متوسطاً بين العمل الخارجي المسبب وبين الرد الفعلي المقصود الناجم عنه . ولا يصعب علينا ان نتصور كون جميع اعمالنا آلية من قبل ، ونحن نعرف عدداً كبيراً من الكائنات يوقظ فيها الاستحاثات الخارجية رداً فعلياً محدوداً دون المرور بالوجدان . فاذا وجد الالم ، او وجدت اللذة عند بعض الكائنات المتميزة عن سواها ، فذلك لكي تتمكن هذه الكائنات من الصمود في وجه الرد الفعلي الذي سيحدث . فاما انه لا يكون ثمة من مبرر لوجود الاحساس او انه بدء الحرية . ولكن كيف نقاوم الرد الفعلي الذي يتهبأ اذا لم يعلمنا الاحساس عن طبيعته باشارة ما ؟ وماذا يمكنها ان تكون تلك الشارة غير بعض التخطيط او التكوين السابق للحركات الآلية المقبلة الكائنة في قلب الاحساس الذي نشعر به ؟ فالحالة العاطفية لا تعادل اذن ذلك الاهتزاز فقط ، او الحركات ، او المظاهر الطبيعية التي كانت ، ولكنها تعادل خصوصاً تلك التي تتهبأ لأن تكون ، تلك التي تريد ان تكون .

بما لا ريب فيه اننا لا نرى باديء ذي بدء كيف يحلّ المشكلة هذا الافتراض ، لاننا نبحث عما يمكن ان يكون هنالك من مشترك بين ظاهرة طبيعية وبين حالة وجدانية من حيث المقدار . ويظهر اننا نقف عند حد قلب المشكلة فقط عندما نجعل من الحالة الوجدانية الحاضرة اشارة تفيدنا عن الرد الفعلي المقبل ، بدل ان تكون ترجمة نفسانية للاستحاثات الخارجية . ومع ذلك فان الفارق عظيم بين الافتراضين ، لان الاهتزازات الجزئية التي تكلمنا عنها سابقاً غير وجدانية بالضرورة ، اذ لم يربسب منها شيء في الاحساس الذي يعبر عنها . ولكن الحركات الآلية التي تنزع الى ان تعقب الاحساس الذي نتلقاه ، وتتبعه طبيعياً ، تكون بوجه الاحتمال وجدانية من حيث انها حركات : والا لما كان من مبرر لوجود الاحساس عينه القائمة مهمته على ان

يدعوننا الى الاختيار بين هذا الرد الفعلي الآلي وبين حركات اخرى ممكنة ايضاً . فلا تكون شدة الاحساس العاطفية اذن الا الوعي الذي ندرك به حركات لا ارادية تبدأ مرتسة الى حد ما في هذه الحالات التي كان بإمكانها ان تتبع مجراها فيما لو كانت الطبيعة قد جعلت منا كائنات آلية لا كائنات واعية .

إذا صحّ هذا التعليل يمتنع علينا ان نشبه ألاماً من الآلام ذاشدة متزايدة بصوت واحد من السلم الموسيقي يزيد ارتفاعاً ، بل بسنقونيا فيها عدد من الآلات العازقة المتكاثرة . ففي قلب الاحساس الاصلي الذي يعين الايقاع لمجمل الاحساسات الاخرى ، يستشف الوجدان عدداً من الحالات النفسانية الاولية تعبر لنا عن ضروريات المتعضى الجديدة حيال الموقف الجديد الحادث له ، وبعبارة اخرى اننا نقدر شدة الألم بالمقدار الذي يساهم به جزء من اجزاء المتعضى المتراوح كبراً او صغراً . وقد لاحظ الاستاذ ريشيه (1) (RICHET) باننا نرجع ألمنا الى مركز ما بطريقة ادق واحكم بقدر ما يكون الألم ضعيفاً . فاذا اشتد هذا الألم وعظم ، ارجعناه الى مجمل العضو المريض . وقد ختم كلامه قائلاً : « يتشعب الألم بقدر ما يشتد (2) » . ونحن نرى من اللازم علينا ان نعكس هذه العبارة ، فنحدد شدة الألم بعدد اجزاء الجسم وامتداد هذه الاجزاء التي تساهم في هذا الألم ، وتقاوم علانية امام الوجدان . وحسبنا قراءة الوصف المتع الذي اعطاه المؤلف ذاته الاستاذ ريشيه عن الكره لنقتنع بصحة هذا الزعم ، قال : « قد لا يحدث قرف ولا تقيء اذا كان الاستحاث ضئيلاً واذا تعدى حدّ الرثوي المعدي* ، وتشعب مجتاحاً جهاز الكيان العضوي برومه تقريباً ، فان الوجه يعلوه الشحوب ، وتنقبض عضلات الجلد الاملس ، ثم يغشاه العرق البارد ، ويتوقف القلب عن ارسال نبضاته . وبكلمة جملة نقول انه يحدث خلل عام عضوي ناتج عن حثّ الرم المستطيل* . ذلك اوضح تعبير عن الكره (3) » ولكن هل تكون الشدة مجرد تعبير فقط ؟ وعلى ماذا يقوم اذن هذا الاحساس العام في الكره ، ان لم يكن على مجموع هذه الاحساسات الاولية ؟ وماذا يمكننا ان نقصد هنا بالشدة المتزايدة ان لم يكن تزايد الاحساسات المضافة دائماً الى تلك التي ادركت قبلاً ؟ لقد رسم لنا داروين صورة شيقة

(1) L'homme et l'intelligence, p. 36.

(2) L'homme et l'intelligence, p. 37

(3) Ibid, p. 43

عن الردود الفعلية التابعة للألم الحاد المتزايد أكثر فأكثر ، قال « يدفع الألم بالحيوان الى بذل أقصى الجهود المختلفة واشدها قوة للتخلص من سبب ألمه ففي الألم الشديد تنقلص الشفتان بعنف ، ثم تصطك الاسنان ، وتوسع حدقة العين تارة ، وطوراً تنقطب الاحجاب بشدة . اذ ذلك ينتقع الجسم عرقاً ، وتختل الدورة الدموية ، ويتعرقل النفس ايضاً (١) - الا نقيس نحن بالواقع شدة الألم بهذه التقلصات العضلية المساهمة ؟ تفحص بتدقيق فكرتك تلك التي تكوّننها عن ألم تعلقه غاية في التشدد . الا تقصد بذلك انه لا يطاق ، اي انه يدفع بالمتعضى الى الف محاولة مختلفة للتخلص منه ؟ وقد تصور نحن عصباً من الاعصاب ينقل الماً مستقلاً عن رد فعلي ذاتي ، ونصور ايضاً استحثاثات ينفعل بها هذا العصب بطرق مختلفة ، ولكن وجدانك لا يمكنه تعليل هذه الفروقات في الاحساس كفروقات كم اذا كنت لا تلحقها بالردود الفعلية المرافقة لها المتراوحة امتداداً وعظماً . فلا تكون شدة الألم بمنزل عن هذه الردود الفعلية التابعة الا كيفاً لا مقداراً .

ولا نستطيع البتة ان نجد غير هذه الطريقة لمقابلة عدة لذات بعضها عن بعض . البست اللذة الاشد هي التي نؤثرها على غيرها ؟ وماذا يمكن ان يكون هذا الاثار غير بعض الميل في حواسنا الذي يدفع بحسنا الى النزوع نحو احدي هاتين اللذتين عندما تعرضان علينا متعاصرتين معاً ؟ فاذا تفحصت هذا الميل نفسه يظهر لك مشحوناً بالف حركة بادئة ترسم في الحواس المساهمة وفي باقي الجسم ايضاً ، كما لو كان المتعضى سباقاً على اللذة المتمثلة . فعندما نحدد الميل بقولنا انه حركة من الحركات ، لا يكون تعريفنا هذا مجرد استعارة او مجاز . فحسنا ينحرف ، حيا لعدة لذات يتمثلها الادراك ، نحو واحدة منها من تلقاء نفسه كأنه مدفوع بعمل انعكاسي ، لا يتوقف كبح جماحه الا على انفسنا فقط . فلا تكون جاذبية اللذة الا هذه الحركة البادئة ، ولا تكون حدة اللذة عندما نتذوقها الا جمود المتعضى الذي يفرق فيها رافضاً كل احساس آخر : فبدون هذه القوة الجامدة التي نعينا عندما تقاوم ما يلهينا عنها ، تكون اللذة ايضاً حالة من الحالات لا مقداراً . وفي عالم الاخلاق كما في عالم الطبيعة تساعد الجاذبية على تعليل الحركة لا على ايجادها .

في الاهساسات التمثيلية لقد درسنا على حدة تلك الاحساسات العاطفية فينا ، فلنلاحظ الآن بان احساسات تمثيلية عديدة تحمل طابعاً عاطفياً ، مثيرة فينا

رداً فعلياً يساهم في تقديرنا لشدائدها . كذا نقين ازدياداً هائلاً من النور مثلاً باحساس خاص لم يتقلب ألماً من الآلام بعد ، ولكنه يشبه البهر قليلاً . ويقدر ما تزيد سعة الاهتزاز الضوئي يرتج راسنا ، فجسمنا ، كأنهما قد ارتطما بشيء من الأشياء الصلبة . ولبعض الاحساسات التمثيلية كالطعم ، والشم ، والحرارة ، طابع مستعذب دائماً او مستكره . فلا نجد البتة الا فروقات كيفية بين الطعوم التي تتراوح مرارة كأنها تنوعات للون واحد . ولكنه كثيراً ما نسارع الى تعليل هذه الفروقات الكيفية كفروقات كمّ بسبب طابعها العاطفي وتلك الردود الفعلية المتراوحة قوة التي توحينا لنا لذة او كرهاً . حتى وان بقي الاحساس تمثيلاً بحتاً فلا يتخطى سببه الخارجي درجة من القوة او الضعف ، دون ان يثير من قبلنا حركات تساعدنا هي ايضاً على ان نقبسه . فتارة نضطر الى ان نبذل قوة عنيقة لنتلقط هذا الاحساس كما لو كان هارباً منا ، وطوراً بالعكس يجتاحنا بذاته ، فيسيطر علينا ويستوعبنا بحيث نبذل اقصى الجهود الممكنة لتتخلص منه ونظّل انفسنا . كذا يقال عن الاحساس في الحالة الاولى ضئيل الشدة خفيفاً ، وكثيرها في الثانية . هكذا مثلاً تتشدد جميع اجزئنا الحيوية لنتلقط صوتاً من الابعاد او لتمييز ما نسميه بالرائحة الخفيفة ، او لرؤية ضوء خافت ، وبكلمة انا « نعيير انتباهنا » . واذا كنا نرى النور والرائحة على شيء من الخفة والضآلة ، فلانها يستجدان بقوتنا نحن . ولكننا نشبت بالعكس من ان الاحساس شديد بواسطة الردود الفعلية العنيقة التي يثيرها فينا ، او من العجز الذي ينتابنا حياله . فالمدفع الذي يقصف بالقرب من آذاننا مثلاً ، او الضوء الباهر الذي يلمع فجأة امام اعيننا ، يسطوان على شخصيتنا خلال مدة من الزمن . وقد تمتد هذه الحالة عند شخص ذي قابلية لمرض من الامراض . ونضيف الى ذلك قائلين اننا نقدر هكذا اهمية هذا الاحساس غالباً بمقابلتنا اياه بغيره يحتل مقامه ، او باعتبارنا الاحاح الذي يتردد به ، وان كان ذلك في منطقة الشدائد المدعوة بالمتوسطة التي نعادلها بالاحساس التمثيلي . وهكذا يظهر لنا ان لدقات الساعة دويّاً اشد ، لانها تستوعب بسهولة وجداناً خلواً من الاحساسات والافكار . ويتراءى لنا الغرباء ، الذين يتحدثون فيما بينهم بلغة من اللغات التي نجعلها نحن ، كأنهم يتكلمون بصوت مرتفع لأن الفاظهم لا تثير فينا معنى من المعاني ، بل تدوي وسط صمت ذهني رهيب فتسطو على انتباهنا كما تتحكم بوعينا دقات الساعة وسط الليل البهيم . ومع ذلك فاننا نشرف بهذه الاحساسات المدعوة بالمتوسطة على سلسلة من الحالات النفسانية

التي يحمل تشدُّها معنى جديداً ، لأن المتعزى لا يقاوم البتة في اغلب الاحايين ، على الاقل بطريقة ظاهرة . وعلى الرغم من ذلك فاننا نجعل العلو الصوتي مقداراً ايضاً ، وهكذا قل عن شدة ضوئية او اشباع في اللون . لا شك بان الوقوف بتدقيق على ما يحدث داخل مجمل المتعزى عندما نسمع صوتاً من الاصوات ، او عندما نرى لوناً من الالوان ، هذا الوقوف يفاجئنا حتماً باشياء كثيرة . وقد ابان الاستاذ فيره (FÉRE) بان كل احساس يرافقه ازدياد في القوة العضلية يمكن قياسه بمقياس القوة (١) (دينامومتر) . ومع ذلك فان الوجدان لا يتنبه الى هذا الازدياد . ولو اننا فكرنا بالدقة التي تميز بها الاصوات ، والالوان ، والاثقال ، والحرارات ، لحدسنا بسهولة عنصراً جديداً هنا يلعب دوره . وليس من الصعب علينا تحديد هذا العنصر وتعريفه .

كلما فقد الاحساس طابعه العاطفي ، ليصير حالة تمثيلية ، تتلاشى الردود الفعلية التي كان يثيرها فينا . ولكننا مع ذلك ندرك العلة الخارجية ، او اذا كنا لا ندركها ، فقد ادركناها قبلاً ، وها اننا نفكر بها الآن . وهذه العلة امتدادية تقاس . ونحن نجد ثمة اختباراً عادياً لما يزل يحدث دائماً في وجودنا عموماً ، منذ ان استفاق وجداننا استفاقته الاولى يرينا في الاحساس تنوعاً محدوداً مطابقاً لمقدار معين من المؤثر الخارجي . حينئذ نلصق بعض كم العلة ببعض كيف المعلول ، ونضع الفكرة في الاحساس ، ونقيم كمية العلة في كيفية المعلول كما يحدث ذلك لكل احساس . وليس من الصعب ان نتثبت من هذه العملية ، فاذا امسكت ابرة بيدك اليمنى مثلاً ناخراً بها يدك اليسرى اكثر فاكتر ، تحس حالتك بشيء من الدغدغة في بادى الامر ، يعقبه احتكاك فيما بعد ، فلعسة ، فألم من ثم في مركز معين محدود ، واخيراً يمتد هذا الوجع وينشعب الى المنطقة المجاورة . واذا امعنت النظر قليلاً في هذه الحادثة ، يتبين لك بان ثمة احساسات كيفية عديدة واضحة ، او تنوعات كثيرة ذات جنس واحد . مع انك لم تتكلم اولاً الا عن احساس واحد هو عينه يحتاج اكثر فاكتر ، وعن لسعة تشد اكثر فاكتر . ذلك لانك وضعت ، بلا وعي منك ، تزايد قوة اليد اليمنى اللاسعة في احساس اليد اليسرى الملسوعة . وهكذا اتمت العلة في المعلول ، وعدلت كيف بالكم ، وعبرت عن هذه الشدة بالمقدار . ولا يصعب علينا التحقق بان تشد كل احساس تمثيلي يجب عليه ان يفهم بهذه الطريقة .

(١) Ch. FÉRE. Sensation et mouvement. Paris 1887.

في الاحساس بالصوت وللإحساسات الصوتية مراتب قوية الشدة الى حد بعيد . فقد قلنا سابقاً بوجوب اعتبار الطابع العاطفي في هذه الاحساسات ، او تلك الهزّة التي يتلقاها المتعضى . ثم اوضحنا بان صوتاً شديداً هو الذي يستوعب انتباهنا ويقوم مقام جميع الاصوات الاخرى . فاذا تناسيت قليلاً هذه الصدمة ، او ذلك الاهتزاز الخاص الذي تشعر به انت احياناً في رأسك او في جسدك ، وتناسيت ذلك التسابق المتزاحم الكائن بين الاصوات المتعاصرة ، لا يبقى من ذلك غير كيف محض في الصوت الموسوع لا يحدّد ولا يُعرف . غير ان هذا الكيف لا يتكعب عن ان يُعلل تعليلاً كيمياً ، لانك تكون قد ادركته الف مرة من قبل بضربك مثلاً على شيء مادي ، وبذلك تبذل كما محدوداً من القوة . وانت تعلم ايضاً الى اي حدّ يجب عليك ان تضخّم صوتك لتصوت مثله ، فتتمثل حالاً فكرة هذه القوة بذهنك جاعلاً من شدة الصوت مقداراً من المقادير . وقد نبهنا (وونظ) (١) الى تلك الرباطات الخاصة الكائنة بين الشبائك العصبية ، والسماعية منها ، التي تحدث في الدماغ الانساني . ألم يُقل بان الاستماع هو مخاطبة الانسان نفسه ؟ ان جميع الذين عطب جهازهم العصبي لا يستطيعون الاستماع الى محادثة ما دون ان يهزوا شفاههم ، وما ذلك الا ترجمة قد بولغ فيها عما يحدث عند كل فرد منا . وهل يمكننا تفهم السطوة في الموسيقى ، او صولتها الايجابية علينا ، بغير التسليم اننا نورد في باطننا تلك الاصوات الموسوعة بحيث نضع انفسنا في الحالة النفسانية ذاتها التي دفقت منها هذه الاصوات ، وهي حالة ابداعية خلاقة لا نستطيع التعبير عنها ، فتوحيا لنا مع ذلك حركات مجموع جسمنا المتخلق بها ؟

عندما نتكلم مثلاً عن شدة صوت متوسط كأنه مقدار ، نشير بذلك خصوصاً الى القوة المتراوحة اللازم علينا ان نبذلها لكي نحصل من جديد على الاحساس الصوتي عنه . ولكننا نلمح في الصوت خاصة اخرى محاذية للشدة ، الا وهي خاصة الارتفاع . فهل تكون الفروقات الارتفاعية التي تدركها اذاننا هي فروقات كمية ؟ من المسلم به ان صوتاً اشد يثير فينا فكرة مركز مكاني اعلى . ولكن هل نقصد بذلك ان اصوات السلم الموسيقي تتباين بغير الكيف من حيث انها احساسات سماعية ؟ تناس ما لقتك اياه الفيزيقا ، وتفحص بامعان تلك الفكرة التي تكونها عن صوت

(1) Psychologie physiologique. trad. fr. tome II p. 497.

يتراوح علواً ، وقل هل اذا كنت لا تفكر فقط بالنشاط المتراوح قوة الذي يجب على العضل القابض للحيال الصوتية ان يبذله كي يخرج الصوت بدوره؟ ولما كانت القوة التي يمر بها الصوت من نوتة الى نوتة هي قوة متقطعة ، فانك تمثل هذه النوطات المتلاحقة كنقاط فضائية ندرتها الواحدة تلو الاخرى بقمزات فجائية ، عابرين كل مرة مدى فارغاً يفصل هذه النوطات بعضها عن بعض ، لذلك نقيم الفواصل بين نوطات السلم الموسيقي . فلم يبق علينا والحالة هذه الا ان نعرف لماذا يرتفع الحُط الذي نكتب عليه الايقاعات الصوتية ، بدل ان يكون اقبياً ؟ ولماذا نقول في بعض الاحيان بان الصوت يرتفع ، وفي البعض الآخر انه ينخفض ؟ لا ريب بان الاصوات الحادة الرفيعة تثير فينا دويماً في الرأس ، اما الاصوات الضخمة الغليظة فانها تدوي في القفص الصدري . وهذا الادراك الحسي ، واقعياً كان او وهمياً ، قد ساهم في جعلنا نعدّ عامودياً تلك المجالات بين الاصوات . فكما اشتدت الحبال الصوتية زاد السطح الجسمي المساهم عند الشادي غير المحنك بعد . لذلك يحس بالقوة كأنها اشد ، فيتنفس افواء من الاسفل الى الاعلى ، ناسباً هكذا الاتجاه عينه الى الصوت الذي يحدته المجرى الهوائي . فبحركة صاعدة اذن نعبر عن مشاركة قسم اكبر في الجسم للعضلات الصوتية ، لذلك ندعو الصوت اعلى لأن الجسم يبذل نشاطاً كأنه يشرب بعنقه ليدرك شيئاً اعلى في فضاء اعلى . وهكذا تعودنا على ان نعزو علواً ما الى كل صوت في السلم . ففي اليوم الذي تمكن فيه العالم الفيزيقي من ان يحدد الصوت بعدد الاهتزازات التي يعادها في وقت من الاوقات ، في ذلك اليوم لم نتراجع عن القول بان اذنا تدرك مباشرة فروقات كمّ . فلولا ادخالنا القوة العضلية التي تخرجه ، او الاهتزاز الذي نعلله به ، لظلّ الصوت كبقاً محضاً .

في الامس بالحرارة اما التجارب الحديثة التي قام بها بليكس (BLIX) وجولدشايدر (GOLDSCHIEDER) ودونالدسون (1) (DONALDSON) فقد ابانت على ان النقاط ذاتها الموزعة على سطح الجسم ليست هي عينها التي تحس بالبرد والحرّ على السواء . والفيزيولوجيا اليوم تميل الى ان تقيم تمايزاً نوعياً ، وليس كمياً ، بين احساساتنا للحر واحساساتنا للبرد . ولكن الملاحظة البسيكولوجية تذهب الى ابعد من ذلك ، اذ لا يعسر على وجدان واع ان يجد فروقات خاصة بين مختلف احساساتنا للحر ، كما يجد ذلك ايضاً بين مختلف احساساتنا

(1) On the Temperature sense. Mind 1885.

للبرد . فحرّاً اشد هو بالواقع حرّاً مغاير للاول . نقوله اشد لاننا احسنا مراراً عديدة هذا التغيير عنه عندما كنا نقرب من مولد للحرارة ، او عندما كان يفعل به سطح اوسع من سطوح جسمنا . وهكذا تتحول احساسات الحر والبرد بسرعة هائلة الى عاطفية مثيرة فينا اذ ذاك ردوداً فعلية تتراوح قوة نقيس بها العلة الخارجية . فلماذا لا نقيم فروقات كمّ متشابهة بين الاحساسات المعادلة لقوى المتخلة في هذه العلة ؟ سوف لا نشدد اكثر من ذلك على هذه التاحية ، فعلي كل فرد منا ان يتساءل بامعان عن تلك القضية بجابته هذا الاحساس وجهاً الى وجه ، غاضاً الطرف عن كل ما تلقته من اختبارات السابقة عن علة احساسه . ولا نشك نحن بما ستكون نتيجة هذا التساؤل اذ نرى بعد الفحص الدقيق بان مقدار الاحساس التمثيلي يرجع الى اننا ندخل في الاحساس حركات الردّ الفعلي المتراوحة اهمية ، والتابعة للاستحاث الخارجي .

في الاحساس بالثقل لتفحص الآن بالطريقة عينها احساساتنا بالضغط والثقل كي نقف على شيء من حقيقتها . فعندما تقول بان الضغط الشاذ على يدك يزيد اكثر فاكثراً ، الا تتمثل بذلك نفسه ان الاحتكاك قد صار ضغطاً ، فالماً ، وان هذا الالم عنه قد تشعب الى المنطقة المجاورة بعد ان اجتاز مراحل كثيرة . ثم حكّم نظرك بامعان لترى هل اذا كنت لا تدخل القوة المضادة المتشددة اكثر فاكثراً ، اي المتسعة اكثر فاكثراً التي تعارض بها الضغط الخارجي . فعندما يرفع عالم النفس الطبيعي وزناً اثقل من غيره ، يصرّح انه يشعر بازدياد في الاحساس . أليس من الاصوب القول عن هذا الازدياد في الاحساس انه احساسٌ بالازدياد ، فالمشكلة قائمة بومتها في هذه النقطة . اذ يكون الاحساس في الحالة الاولى كمّاً كعملته الخارجية ، وفي الحالة الثانية كيفاً تحوّل تمثيلاً لمقدار سببه . ان التمييز بين الثقيل والحفيف دقيق جداً كالتمييز بين الحار والبارد . غير ان ضآلة هذا الفارق هي التي تجعل منها واقعية نفسانية . ولا يعي وجداننا الثقيل والحفيف كاتواع متباينة فحسب ، ولكنه يعي مراتب الحفة والتناقل ايضاً كاتواع عديدة لهذين الجنسين . وزيادة على ذلك نقول بان الفرق الكيفي يترجم عضوياً كفرق كمّي بسبب القوة المتراوحة انبساطاً التي بينها جسمنا ليرفع ثقلاً من الانتقال . وانك تستبين صحة هذا القول اذا دُعيت الى رفع سلة قبل لك انها ملئت حديداً عتيقاً ، ولكنها فارغة بالواقع . وبذلك تفقد التوازن عندما تقدم عليها حقاً

قابضاً على عرونها كأن عضلات غريبة قد ساهمت مقدماً في العملية ، ولكنها تُخدعت ، فصودمت بما لم يكن في حسابها . فنحن نقيس احساس الثقل في مركز ما وفقاً لطبيعة هذه القوى المتعاطفة الحاصلة في نقاط مختلفة من المتعضى ، ووفقاً أيضاً لعدد هذه القوى عينا . ولو لم تدخل فكرة المقدار في هذا الاحساس لما كان غير كيف . والذي يدفعك الى هذا الاعتقاد كونك تسلم مباشرة بوجود الحركة المتجانسة في الفضاء المتجانس . فاذا رفعتُ بذراعي وزناً خفيفاً مع بقاء معظم جسي جامداً لا يتحرك ، اشعر بسلسلة من الاحساسات العضلية ، لكل احساس منها شارته المركزية وتنوعه الخاص . غير ان وجداني لا يعلل هذه السلسلة الا كحركة مستمرة في الفضاء . واذا رفعت وزناً أثقل الى الارتفاع عينه وبالسعة ذاتها امرتُ خلال سلسلة جديدة من الاحساسات العضلية المختلف كل منها عن الاحساس المطابق له في السلسلة السابقة . ولا يصعب عليّ ادراك ذلك اذا امعنت النظر قليلاً . فكما انني اعلل هذه السلسلة الثانية ايضاً كحركة مستمرة كما عللت السابقة ، وهي تتحجى الوجهة عينا ، والدوام عينه ، والسعة عينا ، فمن اللازم والحالة هذه ان يضع وجداني خارج الحركة ذاتها ذلك الفارق القائم بين احساسات السلسلتين السابقة منها واللاحقة . فيجمد هذا الفرق في طرف الذراع المتحرك طائناً ان احساس الحركة قد كان متشابهاً في الحالتين معاً حال كون الاحساس بالثقل مختلف اختلافاً مقدارياً . ولكن الحركة والثقل تميزان قيمهما الوجدان المهمل . اما الوجدان البديهي فله احساس بحركة ثقيلة الى حد ما . وهذا الاحساس يتحول بعد الدرس الى سلسلة من الاحساسات العضلية كل منها يمثل بتنوعه مركزاً حدوثه ، وبصبغته مقداراً الثقل الذي نرفعه .

في الاحساس بالنور هل نسمي التشدد النوراني كمّاً ام اننا نعتبره كيفاً ؟ لم ننتبه بعد كفاية ، على ما اعتقد ، الى كثرة العناصر المختلفة التي تساهم في حياتنا اليومية ، والتي تزيح لنا الحفاء عن طبيعة المصدر المنير . فنحن نعرف منذ القدم بان هذا النور مثلاً هو بعيد المدى ، او انه على وشك الانطفاء عندما يصعب علينا استجلاء اطارات الاشياء واستيضاحها في تفاصيلها . وقد علمتنا التجارب انه يجب علينا ارجاع هذا الاحساس العاطفي الذي يسبق البهر في بعض الحالات الى قوة اعظم في العلة . فلا تظهر اطراف الاجسام ، ولا تبرز اظلالها المنعكسة بالطريقة عينا الا وفقاً لما تزيده او ننقصه نحن من عدد المصادر المشعة . ومن اللازم ايضاً افساح مجال اوسع لتقلبات الصبغة الحادثة

على السطوح المستلونة - حتى الوان الطيف الشمسي الصرف - الناجمة عن ضوء اخف . فبقدر ما يدنو المصدر الضوئي ، يتخذ البنفسجي صبغة ضاربة الى الزرقة ، ويتشع الاخضر بصبغة الاصفر الضارب الى اليباض ، ويقترّب الاحمر من الاصفر اللامع . وبالعكس عندما ينادى هذا النور ، يعبر الازرق الفاتح الى البنفسجي ، ويجتاز الاصفر الى الاخضر ، ومن ثم يقترّب الاحمر ، والاخضر ، والبنفسجي من الاصفر المشرب بياضاً . لقد ائقت هذه التحولات اللونية انظار الفيزيقيين (١) منذ امد ليس بعيد . والغريب في نظرنا كون السواد الاعظم من الناس لا ينتبه الى هذه الواقعة ما لم يحذر الى ذلك . ولما كنا نصرّ على تأويل التغييرات الكيفية كتغييرات كمية ، فاننا نبدأ بوضع ناموس يقول بان لكل شيء لونا خاصاً ثابتاً محدوداً . فاذا دة لون الاشياء الى الاصفرار او الازرقاق ، لا نقول باننا نرى لونها يتغير تحت وطأة ازدياد في الاستضاءة او انتقاص فيها ، بل نجزم بان هذا اللون يبقى ذاته دائماً . غير ان احساسنا للشدة الضوئية هو الذي يزيد وينقص . وهكذا نقيم ايضاً مقام الانفعال الكيفي الحادث في وجداننا التأويل الكمي الناجم عن ادراكنا . وقد اشار (هاولتز) الى مظهر ذي تعليل مجانس ، ولكنه اكثر تعقيداً ، قال « لو ركبتنا لونا ابيض بواسطة لونين من الوان الطيف الشمسي ، ثم رفعنا او انقصنا بالنسبة ذاتها شداثد النورين المتلونين ، بحيث تظل نسب المزيج عينها ، لظل اللون الناتج عنهما هو ذاته على الرغم من ان نسبة التشدد الاحساسي يتغير تغيراً مبنياً . وذلك راجع الى ان الضوء الشمسي الذي نعتبر كونه اللون الابيض العادي مدة النهار يخضع ايضاً لتغييرات بمائلة في تنوعه عندما تتغير الشدة الضوئية (٢) »

واذا كنا نحكم غالباً على تغييرات المصدر الضوئي بالتغييرات المختصة بصبغة الاشياء المحيطة بنا ، فليس الامر كذلك في الحالات البسيطة التي يمر فيها سطح ابيض مثلاً او شيء من الاشياء تدريجياً بمراتب متفاوتة من النورانية ، وسنقف الآن خصيصاً على هذه النقطة الاخيرة . ان الفيزيقينا تحدثنا بالواقع عن مراتب شدة ضوئية كأنها تحدثنا عن كميات حقيقية : الا تقيس هذه المراتب بميزان شدة الضوء (فوتومتر) ؟ ويذهب عالم النفس الطبيعي الى ابعد من ذلك ايضاً زاعماً ان عيننا هي التي تقدر شداثد النور . وقد حاول القيام بمثل هذه التجارب اولا الاستاذ دلبوف (٣) (DELBOEF) ، ثم تبعه بعد

(1) Rood. Théorie scientifique des couleurs, p 154 — 159.

(2) Optique physiologique. trad. fr., page 423.

(3) Eléments de psychophysique. Paris, 1883.

ذلك الاستاذان لهان ونجليك (١) (M. M. LEHMAN & NIEGLICK) طلباً لوضع ناموس نفسياتي طبيعي (بسيكوفيزيقي) يستهدف قياس احساساتنا الضوئية قياساً مباشراً . ونحن لن نعارض النتائج التي آلت اليها هذه الاختبارات ، ولن نبحت في قيمة هذه الاساليب الفوتومترية . ولكننا نرى كل شيء قد انبط بالتعليل الذي تقدم به .

تفحص بامعان ورقة من الاوراق اضاءتها اربع شمعات مثلاً ، ثم اخذت شمعة منها ، فاثنتان ، ثم الثالثة . تقول بان سطح الورقة يبقى ابيض ، اما لونه فقد خبا . وانت تعلم جيداً اننا اطفأنا الان شمعة واحدة . واذا كنت لا تعرف ذلك فقد لاحظت مراراً مثل هذا التغيير في مظهر سطح ابيض عندما يتضاءل الاشعاع . ولكن تغاض عن تذكاراتك واساليبك الكلامية ، فما ادركته بالواقع لم يكن انتقاص اشعاع في السطح الابيض ، بل سماكة ظل عابر على هذا السطح حين كانت تظفأ الشمعة . ولهذا الظل واقعية في وجدانك كالنور عينه . واذا كنت تدعو ابيض ذلك السطح السابق في كل اشعاعه ، فعليك ان تطلق على ما تراه الآن اسماً آخر لانه شيء آخر مغاير للاول : فهو تنوع جديد من البياض اذا جاز لنا التعبير هكذا . وقد عودتنا التجارب الماضية ، والنظريات الفيزيقيّة ايضاً ، على ان نعتبر الاسود كتغيب الاحساس الضوئي ، او على الاقل كادنى مراتبه ، وعلى ان ننظر الى تنوعات السنجابي المتتابعة كشدائد متناقصة في النور الابيض . غير ان للاسود واقعية في وجداننا كالابيض . فتكون الشدائد المتناقصة في الضوء الابيض المنير سطحاً ما تنوعات متفاوتة لوجدان لم ينتبه ، كالألوان المختلفة الكائنة في الطيف الشمسي . ودليلنا على ذلك هو ان التغيير غير مستمر في الاحساس كما هو مستمر في سببه الخارجي ، هو ان النور يزيد وينقص في مدة ما دون الانتباه الى ان سطحنا الابيض يتغير ايضاً : فهو لا يبرز متغيراً بالواقع الا عندما يصبح ازدياد الضوء الخارجي او انتقاصه كافياً لأن يولد كيفاً جديداً . ان تنوعات لمعة لون من الالوان المعطاة - بقطع النظر عن الاحساسات العاطفية التي اتينا على ذكرها سابقاً - لا تكون غير كيفيات ، ولكننا الفنا عادة وضع العلة في المعلول ، واحلال ما علمنا اياه العلم والتجربة مقام انفعالنا الساذج . ومثل ذلك يقال في مراتب الاشعاع . فاذا كانت الشدائد المختلفة في لون من الالوان تقابل ما هنالك من تنوعات مختلفة كائنة

(1) Voir le compte rendu de ces expériences dans la revue philosophique 1887, tome I, p. 71, et tome II, p. 180.

بين الاسود وهذا اللون فان مراتب الاشباع هي كتنوعات متوسطة بين هذا اللون عينه والايض الصفر . وباستطاعتنا ان ننظر الى كل لون من الالوان من جهتين مختلفتين هما : جهة اللون الاسود ، وجهة اللون الايض . فيكون الاسود للتشدد ، ما هو الايض للاشباع .

والآن ينجلي لنا الغموض عن حقائق التجارب الفوتومترية . فالشمعة الموضوعة على بعد من الابعاد ازاء ورقة من الاوراق تنير هذه الورقة بطريقة من الطرق . فاذا ضوعفت المسافة دون ان تزداد شدة المصدر الضوئي لحف تأثير الاضاءة اربع مرات . ولكن كلاماً كهذا لا يستهدف التأثير النفساني بل التأثير الفيزيقي ، اذ لا يجوز لنا القول باننا قابلنا احساسين ببعضهما ببعض لأننا لم نستعمل الا احساساً واحداً لثمايز بين مصدرين من الاشباع مختلفين ثانيهما اربعة اضعاف الاول ، ولكنه مضاعف المسافة . وبالأجمال ان العالم الفيزيقي لا يدخل البتة احساسات تتضاعف مثنى ، وثلاث ، ولكنه يشغل على احساسات متشابهة غايتها ان تتوسط لا غير بين كمين فيزيقيين نستطيع مقابلتهما ببعضهما ببعض . فالاحساس الضوئي يلعب هنا دور الاعداد المساعدة التي يدخلها الرياض في حساباته ، ثم يزيلها من النتيجة النهائية .

اما غرض عالم النفس الطبيعي فهو معاير لذلك تمام المعايرة ، اذ يستهدف دراسة الاحساس الضوئي ذاته زاعماً امكانية قياسه . فيشرع تارة بقياس فروقات متناهية الصغر وفقاً لمنهج (فخنر) ، وطوراً يشرع رأساً بمقابلة احساس بأخر . وهذه الطريقة الثانية الراجعة بالاصل الى بلاطو (PLATEAU) ودلبوف لا تختلف كبير اختلاف عن منهج فخنر ، كما هو المعتقد السائد . وستقف عليها بتدقيق اولاً لانها تستهدف الاحساسات الضوئية بنوع خاص . وهكذا يضع دلبوف رقيباً امام حلقات ثلاث ، ذات محور واحد ، قابلة التغير في لمعتها . ثم يجعل كلاً من هذه الحلقات يمرّ عبر جميع الصبغات الكائنة بين الايض والاسود ، وذلك بواسطة جهاز لبق دقيق . فيأخذ صبغتين مثلاً « ج » و « ك » من هذه الصبغات السنجابية المتعاصرة الحادثة على حلقتين من الحلقات ، وهي الآن غير قابلة التغير . ثم يغير الاستاذ دلبوف لمعة الحلقة الثالثة سائلاً الناظر هل اذا كانت الصبغة السنجابية « ك » لا تبعد بالسواء في فترة ما عن اللونين الآخرين . ولا بدّ من ان تأتي برهنة بالواقع يعن فيها الناظر ان المعاكس (ج ك) يعادل المعاكس (ك س) بحيث نستطيع وفقاً لدلبوف ان نؤلف سلماً من الشدائد الضوئية نستطيع العبور به من كل احساس الى اللاحق به بمعاكسات احساسية متعادلة . وهكذا تقاس احساساتنا

بعضها ببعض . غير اننا لا نوافق نحن على النتائج التي توصل اليها دلبوف في تجاربه الفائقة ، لأن المشكلة الوحيدة في عرفنا انما هي ان تثبت هل اذا كان المعاكس (ج ك) المؤلف من العنصرين (ج) و (ك) معادلاً حقيقة للمعاكس (ك س) المؤلف بطريقة مغايرة . فيوم يثبت ان احساسين من الاحساسات يتساويان دون ان يتشابهما يكون علم النفس الطبيعي قد شاد صرّحه . ولكن هذه المساواة هي التي نشك بها . ومن السهل بالواقع تعليل كيفية امكانية القول عن احساس ما ذي شدة ضوئية انه يتوسط المدى بين آخرين .

لنفترض قليلاً من الزمن بان تغيرات الشدة في مصدر ضوئي قد ترجمت لوجداننا ، منذ ان كنا صغاراً ، بادراكنا المتتابع لمختلف الالوان في الطيف . لا شك بان تلك الالوان قد كانت تبرز لنا حينذاك كاحصوات سلم الموسيقى ، او كمراتب تتراوح علواً في مصعد ما ، او كمقادير بالأجمال . ولا يعسر علينا ان نعين لكل لون من الالوان مركزه القائم في هذه السلسلة . فاذا كانت العلة الخارجية تتغير باستمرار فان الاحساس المستلون لا يتغير حقاً الا بطريقة منقطعة عابراً من تنوع الى آخر . ومهما كثرت التنوعات المتوسطة بين هذين اللونين (ج ك) فلا يصعب علينا عدّها بالفكر وان كان ذلك بشيء من التشويش ، والتحقق هل اذا كان هذا العدد يطابق الى حد ما عدد التنوعات الفاصلة (ك) عن لون آخر (س) . ففي هذه الحالة الاخيرة نقول بان (ك) تتوسط المدى بين (ج) و (س) ، وان كان التعاكس هو ذاته في الحالتين . ولكن ذلك مجرد تعليل نستسهله لاننا نجعل هل اذا كانت القمزات مقادير متعادلة على الرغم من ان عدد التنوعات المتوسطة متساو في الجهتين ، واننا نمرّ من تنوع الى آخر بقمزات فجائية . فمن اللازم الايضاح خصوصاً بان التنوعات المتوسطة التي ساعدتنا على احداث القياس انما هي كائنة الى حد ما في قلب الشيء الذي نقيسه . والا يصبح قولنا بان الاحساس يتوسط المدى مجرد استعارة ومجاز لا غير .

اذا سلّم بما نزعمه عن الشدائد ، فوق هذا الكلام ، يتضح لنا بان مختلف الاصباغ السنجابية التي عرضها على الرقيب الاستاذ دلبوف تشبه الالوان لوجداننا . فاذا قلنا عن صيغة سنجابية انها متوسطة المدى بين صبغتين ، يكون ذلك بالمعنى ذاته الذي يمكننا التكلم به عن البرتقالي مثلاً انه متوسط بين الاخضر والاحمر ، مع هذا الفارق ان تعاقب الاصباغ السنجابية يواتد في اختبارنا السابق بسبب ازدياد تدريجي او انتقاص في الضوء . لذلك نعزو

لفروقات اللمعة ما لا يخطر على بالنا ان نعزوه لفروقات الاستلوان ، وهو استحالة التغييرات الكيفية الى تغييرات مقدارية . ولا يستعصي القياس علينا لأن تتابع التنوعات السنجابية الناجمة عن انقاص دائم في الاستضاءة انما هو تنوعات كيفية متقطعة لكونها كيفية ، وانه يمكننا ان نعدّ تقريباً المتوسطات المهمة التي تفصل بين اثنتين منها . فيقال اذن عن المعاكس (ج ك) انه معادل للمعاكس (ك س) عندما تقيم مخيلتنا المدعومة بالذاكرة العدد ذاته من النُصب في كل من الجهتين . ولكنه تعليل نسبي يختلف باختلاف الاشخاص ، ولا سيما للفروقات التعليلية ، فانها تستوسع كلما زاد تباين اللمعة بين الحلفتين (ج) (ك) ، لاننا نبدل نشاطاً مرهقاً اكثر فاكثراً لتقدير عدد الصبغات المتوسطة . هذا ما يحدث بالواقع كما ينبغي لنا عندما نومي بنظرة فاحصة على اللوحتين اللتين عرضهما الاستاذ دلبوف (١) . فبقدر ما يعظم فارق اللمعة الكائن بين الحلقة الخارجية والحلقة المتوسطة ، يعظم الفارق بين الارقام التي يقف حيالها الناظر دورياً ، او الناظرون المختلفون ، ويتسع هذا الفرق بطريقة مستمرة على وجه التقريب من ٣ الى ٩٤ ، ومن ٥ الى ٧٣ ، ومن ١٠ الى ٢٥ ، ومن ٧ الى ٤٠ . ولكن لنتروك جانباً هذه الفروقات مفترضين كون الناظرين على وفاق فيما بينهم ، وعلى وفاق مع انفسهم ، فهل نكون مع ذلك قد اثبتنا بهذا ان المعاكسين (ج ك) و(ك س) متعادلان ؟ من الواجب الابانة اولاً بان معاكسين ابتدائيين متعاقبين هما متعادلان ، وجل ما نعلمه انها متعاقبان ، ومن الضروري ايضاً ان نكون قد ابتنا من ثم اننا نجد في الصبغة السنجابية المعطاة تلك الصبغات الادنى التي مرت بها مخيلتنا لتقدر الشدة الموضوعية في المصدر الضوئي . وبكلمة مختصرة ان علم النفس الطبيعي الذي شاده دلبوف يفترض مبدأ نظرياً ذا اهمية كبيرة عبثاً يحاول اخفاؤه تحت مظاهر تجريبية . ونحن نقعد هذا المبدأ كما يلي : عندما تزيد باستمرار الكمية الموضوعية في النور تتساوى فيما بينها الفروقات بين الاصباغ السنجابية المولدة بالتتابع ، تلك الفروقات التي يعبر كل منها عن اصغر زيادة مدركة في الاستحاثات الفيزيقي . وعلاوة على ذلك نقول انه باستطاعتنا ان نعاذل احدي هذه الاحساسات الحادثة بحاصل الفروقات التي تفصل الاحساسات السالفة بعضها عن بعض منذ الاحساس العدم . هنا هو بالواقع مبدأ علم النفس الطبيعي الذي شاده فخنر ، وسنأتي على درسه في الاسطر التالية .

(1) Eléments de psychophysique, page 61 et 69.

علم النفس الطبيعي (البسكوفيربنا) لقد انطلق فخنر من ذلك الناموس الذي كان وير (WEBER) قد اكتشفه والقائل بأنه اذا احدث فينا استحثات ما احساساً من الاحساسات تكون كمية الاستحثات الواجب اضافتها الى الاستحثات السابق كي يحس الوجدان بتغيير ما ، بنسبة ثابتة . فاذا اشرنا بحرف (ك) الى الاستحثات المطابق للاحاساس (س) ، وبحرفي (Δ ك) الى كمية الاستحثات المماثل لذازه الواجب زيادتها على الاستحثات الاول لينكوّث احساس الفرق ،

يكون لدينا $\frac{\Delta ك}{ك} = \text{ثابت}$. لقد ادخل تلاميذ فخنر تغييرات كثيرة على هذا

القانون ، ونحن لن نطلق حكمننا في هذه المساجلة ، لأن التجربة وحدها هي القادرة على البت في صحة النسبة التي اقامها (وير) وتلك التي ادخلت عليها . ولا نمانع في التسليم باحتمالية قانون كهذا ، لأن القضية لا تقوم هنا على قياس الاحساس بل على تحديد البرهه الدقيقة التي يتغير فيها الاحساس بسبب زيادة في الاستحثات الخارجي . ومن الواضح ، اذا احدثت كمية محدودة في الاستحثات تنوعاً محدوداً في الاحساس ، ان اصغر الكميات في الاستحثات اللازمة لاحداث تغيير من هذا النوع انما هي محدودة ايضاً . ونظراً لعدم ثباتها يجب عليها ان تكون التابع البياني* للاستحثات الذي تضاف اليه . - ولكن كيف يمكننا ان نعبّر عن نسبة قائمة بين الاستحثات واصغر زيادة تضاف اليه الى معادلة « تربط » كمّ الاحساس « بالاستحثات المطابق له ؟ ان علم النفس الطبيعي قائم برمته في هذا الانتقال الذي سندرسه بامعان فيما يلي .

ثمّة عدة اساليب مختلفة في العبور من تجارب (وير) ، او من اية سلسلة اخرى من الملاحظات المماثلة ، الى ناموس علمي نفسي طبيعي كنااموس فخنر . فيتفق اولاً على اعتبار وعينا لازدياد في الاستحثات كازدياد في الاحساس (س) . ومن ثم نطلق على هذا الوعي اسم (س Δ) . بعد ذلك نضع ناموساً يقول بان جميع الاحساسات (س Δ) المطابقة لاقول ازدياد نحسه في الاستحثات الخارجي هي متساوية فيما بينها . وبذلك نكون قد اعتبرنا هذه الاحساسات كميات . ولما كانت هذه الكميات متعادلة دائماً من جهة ، في حين ان التجربة قد اعطتنا من جهة ثانية نسبة من النسب بين الاستحثات (ك) واصغر زياداته هي

$\Delta ك = (ك) ف$ ، فاننا نعبّر عن ثبات (س Δ) بكتابةنا اياه $\frac{\Delta ك}{ك} = \text{ث} = س \Delta$ ،

ث هي كمية ثابتة . واخيراً يُصطلح على ان يستعاض عن الفرقين الصغيرين جداً (س د) و (ك د) بالفرقين المتناهيين في الصغر تماماً (س د) و (ك د) ،

وهكذا نتوصل هذه المرة الى معادلة تفاضلية $s = d \cdot \frac{d}{(d)}$. لم يبق علينا

من ثم الا ان تتم حساب ضلعي المعادلة لنحصل على النسبة المبتغاة (١) ،

الا وهي $s = d \cdot \frac{d}{(d)}$ ، وهكذا ننقل من ناموس مقرر لم يرد فيه الا

ظهور الاحساس الى ناموس غير مقرر يعطينا قياس هذا الاحساس .
 لنظهر بايجاز ، دون التورط بعيداً في جدل عميق بخصوص هذه العملية الخطيرة ، كيف ان فخر قد وضع اصبعه على حقيقة صعوبة المشكلة ، وكيف حاول ان يتغلب عليها ، وعلى ماذا تقوم آفة برهته في عرفنا .
 لقد ادرك فخر انه لا يجوز لنا إدخال القياس الكمي في علم النفس دون ان نحدد اولاً تساوي حالتين بسيطتين او احساسين من الاحساسات ، ومن ثم تعريف الجمع بينهما . ونحن لا نرى من جهة ثانية كيف يتساوى احساسان فيما بينهما اذا لم يكونا متشابهين . ليست كلمة التساوي مترادفة لكلمة الذاتية في عالم الطبيعة دون شك ، ذلك لأن كل مظهر من المظاهر يبرز من خلال شكلين : شكل كيفي ، وشكل امتدادي . ولا عائق من اهمال الشكل الكيفي ، فلا يبقى والحالة هذه الا حلقات تتراكم مباشرة او غير مباشرة متجانسة في مجموعها . ان هذا العنصر الكيفي الذي نلغيه نحن من الاشياء الخارجية باديء ذي بدء كي نجعلها قابلة للقياس انما هو الذي يتمسك به علم النفس الطبيعي ، زاعماً بأنه يستطيع قياسه . وعبئاً يحاول قياس هذا الكيف (ق) باحدى الكميات الفيزيقية (ق') المرتكز عليها ، لأنه من اللازم ان تكون قد ابناً اولاً بان (ق) هي تابع بياني للكمية (ق') ،

(١) في الحالة الخاصة التي يسلم فيها، دون تعديل ناموس (وير) ، بان $\frac{d}{d} = \text{ثابت}$ ،

يعطي تسميم الحساب $s = d \cdot \frac{d}{e}$ ، ع هي ثابت . هذه هي قاعدة حساب

المثلثات لفخر .

وذلك لا يمكن حدوثه الا اذا قسنا اولا الكيف (ق) باحدى الكميات المكسرة منها . وهكذا لا نجد صعوبة من ان نقيس احساس الحرّ بدرجة الحرارة . غير ان ذلك مجرد اصطلاح لا غير . وعلم النفس الطبيعي يقوم على رفض هذا الاصطلاح والبحث عن كيفية تغير الاحساس بالحر عندما تتغير الحرارة . وبالاجمال يظهر انه لا يمكننا القول عن احساسين مختلفين انهما متعادلان ، ما لم يكن ثمة من قاعدة مشتركة تربط بينهما ، بعد ان نكون قد حذفنا الفارق الكيفي . ولما كان هذا الفارق من جهة ثانية هو كل ما نحس به ، لا نرى ماذا يمكن ان يرسب منها بعد الغائه .

وترجع ابتكارية « فخر » الى انه لم يعتبر الصعوبة هذة عاصية عليه . فلم ينتكب عن اغتنام فرصة كون الاحساس يتغير بتقطع عندما يزداد الاستحاث الخارجي باستمرار مشيراً باسم واحد الى هذه الفروقات الاحساسية . حقاً انها لفروقات صغيرة جداً ما دام كل منها يعادل اصغر الزيادات المدركة في الاستحاث الخارجي . اذ ذلك يمكنك ان تتعاضى عن هذه الفروقات المتتابعة ، او كيفها الخاص ، فتجد حينئذ رابطة مشتركة تتجانس بها هذه الفروقات في مجموعها تقريباً . انها لفروقات متناهية في الصغر . هذا هو تحديد النسوي ، اما تحديد الجمع ، فانه تابع للاول من تلقاء ذاته ، لأنه اذا اعتبرنا كمياً ذلك الفرق الذي يدركه الوجدان بين احساسين يتعاقبان طيلة ازدياد مستمر في الاستحاث ، مسمين الاول (س) والثاني (س + Δ س) نضطر الى اعتبار كل احساس (س) كحاصل يتكوّن من جمع الفروقات الطيفية التي نجتازها قبل ان ندرك الاحساس . فلا يبقى لنا الا ان نستعمل هذا التحديد المزدوج كي نقيم نسبة بين الفرقين (س + Δ س) و (س) اولا ، ثم بين المتغيرين بواسطة التفاضليات . ان بوسع الرياضيين ان يحتجوا على هذا الانتقال من الفرق الى التفاضل ، ويقدمون علماء النفس ان يتساءلوا هل اذا كانت الكمية (س + Δ س) لا تتغير كاحساس عينه (١) بدل ان تكون ثابتة . واخيراً من الممكن ان يُتجادل في حقيقة فدوى ناموس علم النفس الطبيعي بعد اتمامه . ولكن اعتبارنا (س + Δ س) كم و (س) كحاصل هو بمثابة التسليم بالمبدأ الاساسي من العملية كلها .

ولكن هذا المبدأ هو الذي نشك فيه نحن لانه غير معقول . فاذا افترض انني اشعر باحساس (س) ، وقد ادركت بعد مدة من الزمن زيادة الاستحاث

(١) نعتبر اليوم (س + Δ س) كمتناسبة مع (س)

الخارجي الذي زیده دائماً ، فاني انتبه الى ازدياد العلة . ولكن ماذا يمكننا ان نقيم من نسبة بين هذا التنبه وبين فرق ما ؟ لا شك ان وعينا هذا يقوم على ان الحالة الاولى قد تغيرت فصارت (س') . ولكنه من الضروري ، كي يحق لي تشبيه الانتقال من (س) الى (س') بفرق حساسي ، ان اكون قد وعيت المدى الكائن بين (س) و (س') ، وان يكون احساسي قد صعد من (س) الى (س') بزيادة شيء من الاشياء . فعندما تطلق على هذا الانتقال اسماً من الاسماء (س Δ) ، فانك تجعل منه واقعية اولاً ثم كمياً بعد ذلك . ولا يصعب عليك الادلاء فقط كيف ان هذا الانتقال انما هو انتقال كمي ، بل ترى بعد التفكير المعين بانه انتقال غير واقعي ، اذ ليس من واقعي غير الحالتين (س) و (س') ، وان كانت (س) و (س') احساسين معطين فقط . ذلك لان العدد (س - س') الذي هو جمع وحدات ، يمثل بالحقيقة تلك الهنديات المتعاقبة في الجمع الذي نمرّ به من (س) الى (س') فاذا كانت (س) و (س') حالتين بسيطتين ، على ماذا يقوم اذن ذلك المدى الذي يفصلها بعضها عن بعض ؟ وماذا يمكنه ان يكون ذلك الانتقال من الحالة الاولى الى الحالة الثانية غير مظهر من مظاهر فكرك انت ، فتجعل اختياريّاً من تعاقب حالتين فرق مقدارين ؟

ثمة موقفان لا غير : اما ان نقف عند حد ما يعطيك اياه الوجدان ، او ان تمسك هو مجرد اصطلاح ليس الا . فتجد في الحالة الاولى بين (س) و (س') تفاوتاً شبيهاً بتفاوتات تنوعات قوس قزح ، ولكنه بعيد عن ان يكون تفاوتاً مقدارياً . فاذا ادخلت الرمز (س Δ) ، وذلك سهل عليك ، يصبح حديثك اذ ذاك عن الفرق الحسائي مجرد اتفاق لا غير تحويل به الاحساس المعطى الى خاص ما . لقد اوضح هذه النقطة الاخيرة الاستاذ جول تانري (JULES TANNEY) وهو اقوى من وجه نقداً لاذعاً الى فختر بقوله « يقال بان احساساً ذا ٥٠ درجة مثلاً يعبر عنه بعدد الاحساسات التفاضلية التي تتعاقب من عدم الاحساس الى الاحساس ذي الـ ٥٠ وانا لا ارى في ذلك سوى تحديد له من الشرعية ماله من الاختيارية (١) » .

لا نظن ، على الرغم مما قيل ، بان طريقة التدرجات المتوسطة قد اكسبت علم النفس الطبيعي وجهة جديدة . ويرجع عمل (دلوبوف) المبتكر الى انه اختار حالة خاصة من الحالات التي يماشي فيها الوجدان (فختر) معطياً اياه الحق ، اذ يكون الحس المشترك ذاته في هذه الحالة متخذاً موقف العالم

(1) Revue scientifique. 13 Mars et 24 Avril 1875.

البشري الطبيعي، فتبادل هل إذا كانت بعض الاحساسات لا تظهر متساوية
 وان اختلفت فيما بينها ، وهل اذا كنا نتكهن بواسطتها من ان نشيد قائمة
 من الاحساسات المتضادة مثني ، وثلاث ، ورباع . وقد قلنا بان آفة
 (فختر) كانت ايمانها بوجود مجال بين احساسين متعاقبين (س) و(س') ، في
 حين ان هذا المجال لا يخرج عن كونه مجرد عبور فقط ، وليس بالفرق وفقاً
 للمعنى الحسابي . واذا كانت الحالتان اللتان يحدث بينهما الانتقال تعطينان في
 آوثة واحدة ، يكون ثمة من تعاكس هذه المرة ، علاوة على هذا الانتقال ،
 وعلى الرغم من ان التعاكس هذا لم يصبح بعد فرقا حسابياً فهو يشبه
 بناحية من النواحي . ان الحالتين اللتين تقابلها بعضهما ببعض تكون الواحدة
 منها ازاء الاخرى كأنهما في عملية حسابية من الطرح . لتفترض الآن ان
 هذين الاحساسين متجانسان في طبيعتهما ، واننا شهدنا تعاقبهما بالتتابع دوماً في
 حياتنا الماضية حين كان يتزايد الاستحاثات تزايداً مستمراً ، فمن المحتمل كثيراً ان
 نضع العلة في المعلوم ، وان يتحول هكذا فرق التباين الى فرق حسابي .
 ولما كنا نلاحظ من جهة ثانية كون الاحساس يتغير فجأة في حين انه لا
 يكون ازدياد الاستحاثات الا ازدياداً مستمراً ، فاننا نقدر المجال الكائن بين احساسين
 معطين بعدد هذه القفزات الفجائية ، او على الاقل بعدد الاحساسات المتوسطة
 التي نستخدمها دائماً بمثابة نصب نستعين بها . وقصاره ان التباين الكائن
 بين الاحساسين يبرز لنا بمظهر الفرق ، ويظهر لنا الاستحاثات كدماً ، وتتراوى
 لنا القمزة الفجائية كعنصر مساواة . فاذا مررنا هذه العناصر الثلاثة معا
 تتكون فيك فكرة الفروقات الكمية المتساوية . ولا نجد حالة من الحالات
 تتوفر فيها هذه الشروط الا عندما تُعرض علينا ، متعاصرة ، سطوح ذات
 لون واحد تتراوح قوة في الاستضاءة . فلا نجد تبايناً فقط بين احساسات
 متشابهة ، بل تتفق هذه الاحساسات جميعاً في انها صادرة عن علة يرتبط
 بمسافتها تأثيرها علينا . ولما كانت هذه المسافة قابلة للتغير باستمرار ، فقد
 اجبرنا على ان ندون في اختبارنا السابق عدداً كبيراً من التنوعات
 للمتعاقة طيلة ازدياد مستمر في العلة . فيمكننا القول اذن بان التباين القائم
 بين الصبغة السنجابية الاولى والصبغة السنجابية الثانية مثلاً يساوي على وجه
 التقريب تباين الصبغة السنجابية الثانية مع الصبغة الثالثة . واذا كنا نحدد
 احساسين متساويين بقولنا انهما احساسان نعملها هكذا بشيء من الغموض ،
 فاننا ننتهي اخيراً الى الناموس الذي ارتآه الاستاذ (دلبوف) . ولكن يجب
 علينا الا ننسى كون الوجدان قد مرّ عبر هذه المتوسطات ذاتها التي اجتازها

علم النفس الطبيعي ، وان حكمه هنا انما هو حكم هذا العالم . فما ذلك التغير الا مجرد تغير تحول به الكيف الى الكم . هو تقدير مشوه تقريباً لعدد الاحساسات التي تتوسط احساسين معطين . ونحن لا نرى الفارق عظيمًا بمقدار ما نظنه بين طريقة التغيرات الطفيفة وطريقة التدرجات المتوسطة ، اي بين بسيكوفيزيقا (فخر) وبسيكوفيزيقا (دلوف) . اما الاولى فانها تقيس الاحساس قياساً اصطلاحياً ، والثانية تلجأ الى الحس المشترك في بعض حالاته الخاصة الذي يسلك فيها المنهج ذاته ايضاً . وقصاره ان كل علم نفساني طبيعي مقضي عليه من مصدره عنه ان يدور في قياس الدور ، لأن المبدأ النظري الذي يرتكز عليه ينيخه لتحقيق تجريبي ، وذلك لا يكون الا اذا سلمنا اولاً بالمبدأ الذي يقول به . وسبب هذا انما هو عدم وجود رابطة بين الممتد واللامتد ، بين الكيف والكم . قد نعلل الواحد بالآخر ، ونوفق بين الاول والثاني . ولكننا نضطر ، آجلاً او عاجلاً ، الى ان نسلم بالطابع الاصطلاحي الكائن في هذه المقارنة .

ان جل ما قام به علم النفس الطبيعي انما هو كونه قعد بتدقيق ، وتمادى الى اقصى نتائجها الممكنة ، نظرية مألوفة عند الحس المشترك . وبما اننا لا نفكر ، بل نتكلم ، معتبرين الاشياء الخارجية العامة اكثر مما نعتبر تلك النفسانيات التي نمر بها ، كان من الاجدى لنا ان نجعل هذه الحالات الباطنية اشياء جامدة بادخالنا فيها تمثيل سببها الخارجي الى اقصى حد ممكن . فبقدر ما تتسع دوائر معرفتنا نلمح الممتد خلف المتشدد ، والكم وراء الكيف ، تازعاً بنا هذا الميل الى احلال الاول في الثاني ، والنظر الى احساساتنا كأنها مقادير . والفيزيقا ~~التي~~ وظفتها بالواقع على ان تقيس السبب الخارجي لحالاتنا الباطنية ، تتغاضى كثيراً عن تلك الحالات عينها ، متعمدة دائماً ادماجها بعلمها الخارجية الشبثية . وهكذا تناصر نظرية الحس المشترك ويُبالغ فيها من هذه الناحية . وقد كان من المحتم ان تجيء ساعة يحاول فيها العلم ان يقيس الواحد كما يقيس الآخر ، بعد ان ألفنا مزج الكيف بالكم ، والاحساس بالاستحاثات : تلك كانت غاية البسيكوفيزيقا . وقد شجع (فخر) على القيام بهذه المحاولة الخطيرة خصومه انفسهم والفلاسفة الذين يتحدثون عن مقادير متشدة مع القول بان هذه النفسانيات لا تخضع لسطوة القياس . فاذا كنا نسلم حقيقة بان الاحساس يمكن القول عنه انه اقوى من غيره ، وان هذا التباين قائم في الاحساسات عينها يبعزل عن كل ائتلاف فكري واعتبار متراوح الادراك للعدد والمكان ، فمن الطبيعي ان نحاول البحث عن كمية زيادة

الاحساس على احساس آخر ، وبذلك عينه نقيم نسبة كمّ بين شدائدهما . ولا منفعة من ان نجواب حينئذ ، كما يفعل اكثر الاحيان خصوم البسيكوفيزيقا ، بان كل قياس يستلزم رصفاً ، لذا لا يحق لنا ان نبحت عن نسبة عددية بين شدائد ليست باشياء توصف . والا اضطررنا الى تعليل سبب قولنا بان احساساً ما هو اشد من غيره ، وكيف يجوز لنا ان ندعو اكبر او اصغر اشياء لا تقبل فيما بينها ، كما رأينا ، نسب شامل ومشمول . واذا صرنا حبل كل جدل من هذا النوع بتمييزنا نوعين من الكمّ : كمّ متشدّد يحتمل الاكثر والاقل فقط ، وكمّ متسدّد يقبل القياس ، نعترف اذ ذاك بصحة ما قاله (فخنر) وعلماء النفس الطبيعيون . لانه حالما نسلم بإمكانية ازدياد الشيء وانتقاصه نحاول تلقائياً من ثم ان نبحت عن مقدار انتقاصه او ازدياده . ولما كان يعسر علينا القيام بهذا القياس مباشرة ، لا يحق لنا ان نستدل بذلك على عجز العلم عن تحقيقه بطريقة ما غير مباشرة ، اما باحداث جزئيات صغيرة متناهية كما يريد (فخنر) ، او بأسلوب من الاساليب المنحرفة . فلا مناص من اختيار واحد من امرين : فاما ان يكون الاحساس كيفاً محضاً ، او ان يكون مقداراً يجب علينا قياسه .

في السمة والكثرة ولكي نجمل ما مرّ معنا من الكلام المذكور اعلاه ، نقول بان لمبدأ الشدة مظهرين من المظاهر وفقاً لبحثنا في تلك الوجدانيات المتمثلة عن سبب خارجي ، او في تلك النفسانيات المكتفية بذاتها . فيكون ادراكنا للتشدّد في الموقف الاول كناية عن تقديرنا كمّ العلة وكيف المعلول ، فهو اذن ادراك حسّي مكتسب على حد تعبير (الايقوسين) وفي الحالة الثانية ندعو شدة تلك الكثرة المتفاوتة في الكبر ، الكائنة في النفسانيات البسيطة التي نستشفها في قرارة الحالة الاساسية . ولا يكون ذلك الادراك ادراكاً مكتسباً ، ولكنه ادراك مبهم غامض . غير ان معني هذه الكلمة يتداخلان بعضها في بعض اكثر الاحيان ، لان الوقائع الابطسط التي يشتمل عليها انفعال ما او جهد من الجهود كثيراً ما تكون تمثيلية ، ولما كانت الحالات التمثيلية عاطفية ايضاً في معظمها ، فانها تحتضن كذلك كثرة من الحالات النفسانية البسيطة . ان فكرة التشدّد هي تلاقي تيارين يطل علينا احدهما من الخارج بفكرة مقدار متسدّد ، ويطلع علينا الثاني من اعماق الوجدان صاعداً ، مستصحياً معه فكرة الكثرة الباطنية . يبقى علينا ان نعرف على ماذا تقوم هذه الكثرة الباطنية ، هل تنتج بفكرة العدد ام انها

تختلف عنها اختلافاً مبنياً . سوف لن نبحث خلال الفصل الثاني في الحالات الوجدانية منعزلة بعضها عن بعض ، ولكننا سنتناولها في كثرتها الواقعية كما تدفق في الدوام المحض . ولما كنا قد تساءلنا عما تكون شدة الأحساس التمثيلي ، لو لم تدخل فيها فكرة العلة ، هكذا نتساءل الان ماذا تصبح كثرة حالاتنا الداخلية ، ما هو شكل دوامها عندما نسلخها عن الفضاء الذي تحدث فيه . ان هذا السؤال الثاني مغاير للاول في اهميته . لانه اذا كان مزج الكيف بالكم يقف عند حد كل حالة من الحالات الوجدانية بفردتها ، فهو يثير مبهات لا مشاكل كما راينا آنفاً . وقد سُؤِّهت في مصدرها ذاته تشيلاتنا للتغير الخارجي والباطني ، للحركة والحرية ، وذلك بادخال المكان في تفهينا للدوام . هذا هو الشيء الذي افضى الى سفسطائية مدرسة (أبلي*) . ومن هنا كانت مشكلة الاختيار الحر . سنشدد بالاكتر على النقطة الثانية : ولكننا سنزيل الحفاء عن وهم الذين اثاروا تلك المشكلة بدل ان نحاول استخراجها بمجل نوجده لها .

